

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الجزائر-02- أبو القاسم سعد الله
قسم الفلسفة

مادة: فكر شرقي قديم

مطبوعة الدروس النظرية

بغنوان:

محاضرات في الفكر الشرقي القديم

- مقدمة لطلبة السنة الثانية جامعي (فرع علوم إنسانية) -
تخصّص: ليسانس فلسفة.

إعداد الدكتورة/ فاطمة الزهراء بكوش

أستاذة محاضرة-أ-

تقرير الخبيرين:

د/ عبد الوهاب مطاري (داخلي)

د/ محمد سي بشير (خارجي)

السنة الجامعية: 2024 / 2025م

People's Democratic Republic of Algeria

Ministry of Higher Education and Scientific Research

University of Algiers-02- Abu Al-Qasim Saadallah

Department of Philosophy

Subject: Ancient Eastern Thought

Printed courses

Intituled

Lectures on Ancient Eastern Thought

Introduction for second-year university students

(Humanities Branch)

Specialization: Bachelor of Philosophy.

Prepared by Dr. Fatima Zahra Bekouche

Lecturer – A

Raport expert

Dr/ Abdelouahabe matari.

- Dr /Mohamed si bachir.

University year 2024-2025

ملخص المطبوعة البيداغوجية

محاضرات في الفكر الشرقي القديم

يتلخّص مضمون هذه المطبوعة في حاجة الطالب الجامعي المبتدئ، فرع العلوم الانسانية، الى مجموعة من المحاضرات في مقياس "الفكر الشرقي القديم"، حيث تتناول بشكل عام طبيعة وخصائص التفكير الشرقي القديم لدى الحضارات القديمة، منها: الحضارة المصرية، والصينية (الكونفوشيوسية)، والهندية (البراهمانية و البوذية)، وبلاد الرافدين (ملحمة جيلجاميش)، وبالأخص: الفارسية (الزرادشتية، والمانوية)، والبابلية والسومرية (قانون حمورابي). وأيضاً معرفة بدايات التفكير الفلسفي الإنساني. وأخيراً: التعرف على اسهامات الحضارات القديمة من الناحية العلمية والفكرية والثقافية والاجتماعية والسياسية، مع ذكر أهم الإنجازات التي ساعدت الإنسان القديم على التطور والتأثير في غيره. والهدف العام من ذلك؛ هو تبين فضل التفكير الفلسفي في حل مشكلات الإنسان قديماً، وانعكاساته على واقعه المعيش، ثم امتداد تأثيراته في العصر الراهن. وعليه يقتضي الحال تدريب الطالب على تقنيات فهم المسائل الفلسفية بمراحلها؛ كدراسة موضوعية منتجة وهادفة.

Summary of the pedagogical publication

Lectures on Ancient Eastern Thought

The content of this publication is summarized in the need of the beginning university student, in the humanities department, for a series of lectures in the "**Ancient Eastern Thought**" module. These lectures generally address the nature and characteristics of ancient Eastern thought in ancient civilizations, including: Egyptian, Chinese (Confucianism), Indian (Brahmanism and Buddhism), Mesopotamian (the Epic of Gilgamesh), and especially Persian (Zoroastrianism and Manichaeism), Babylonian, and Sumerian (the Code of Hammurabi). It also aims to understand the beginnings of human philosophical thought. Finally, it aims to identify the contributions of ancient civilizations from the scientific, intellectual, cultural, social, and political perspectives, while mentioning the most important achievements that helped ancient humans develop and influence others. The overall goal is to demonstrate the role of philosophical thought in solving ancient human problems, its repercussions on living reality, and the extension of its influence into the present era. Accordingly, it is necessary to train the student in the techniques of understanding philosophical issues in their various stages, as a productive and purposeful objective study.

مقدمة:

نضع هذه المطبوعة البيداغوجية التي هي بعنوان: "محاضرات في الفكر الشرقي القديم"، بين يدي الطالب القارئ في السنة الثانية جامعي (نظام ل-م-د) بجامعة الجزائر-2 أبو القاسم سعد الله. فرع علوم إنسانية، من أجل تدعيمه بدروس مهمة؛ كنّا نلقيها على شكل محاضرات طوال الدراسة الجامعية، وتأتي أهمية هذه المطبوعة نتيجة انشغال الطالب بجمع الدروس بعد الاستماع إلى المحاضرات، وحرصه الشديد على الإلمام بكلّ ما يعرضه الأستاذ المحاضر من معلومات، قد تفوته لحظات في فهم ما يمكن فهمه من مناقشات دائرة بين حكماء وفلاسفة ومفكرين حول قضية معينة؛ حيث لاحظنا تلقين المحاضرات في مقياس: "الفكر الشرقي القديم"، صعوبة فهم الطالب لبعض المصطلحات والأفكار الشرقية القديمة التي تناولت طبيعة الإنسان والعالم وحركية المجتمعات والحضارات، لأجل ذلك انجزنا هذه المطبوعة من باب تبسيط تلك النظريات المتعلقة بنظرية الوجود الانساني، لتكون بديلا عن الكم الهائل من الكتب المتراكمة حول الموضوع التي يجب البحث فيها من جهة، وتكون سند اضافي لدروس مودل التي يتعذر على الطالب استخراجها من جهة ثانية (أحيانا). كما إنّ هذه المطبوعة توافق المقرر الدراسي، كتبت بعناية كبيرة خلال التدريس، حيث جاءت شاملة للأفكار البارزة في الفكر الشرقي القديم، وعليه بإمكان الطالب التعمق فيها أكثر، إذا وجد ما يستدعي الإضافة لبعض المسائل التي يمكن مناقشتها .

وللتذكير؛ في هذه المطبوعة سيجد الطالب، المحاضرات جاهزة ومرتبّة ترتيبا تسلسليا (سبعة فصول)، توافق المقرر الدراسي الجامعي، ملخّصة في ثلاثة أقسام أساسية؛ فهي كما قلنا مجزأة الى فصول ومباحث، وقسم خاص بنصوص مختارة حول مسائل الفكر الشرقي التي انتقلت من حضارة الى حضارة. وننبه الطالب القارئ، إلى ملازمة الأستاذ المحاضر فيما يعرضه من معلومات حول القضايا الفكرية والثقافية والدينية والعلمية، دون أن يكتفي بقراءة ما يتضمنه المقياس من أساسيات، عبر نظام مودل (الذي لا يسمن ولا يغني من جوع) وما على الطالب إلّا البحث أكثر لتوسيع دائرة فهمه، خارج إطار الدرس، وهذا الأمر يشقّ التعمّد عليه لاستيعاب الأفكار الفلسفية لدى حكماء الشرق. وهنا تأتي أهمية هذه المطبوعة التي أعدناها، وهي موثقة بالهوامش، أيّ بالمراجع المطلوبة، حتى نلهم الطالب بأنّه يملك كتابا ملخّصا حول مقياس: الفكر الشرقي القديم. وبهذا ستزيد ثقة

الطالب بالمقياس، كما تسهل عليه المراجعة والتحضير للامتحان، وسيشعر بالثقة الكبيرة في تناول المواضيع الحساسة، ويناقشها بكل موضوعية، لتتشكل لديه قناعة وموقف شخصي من القضايا الفكرية، والتي نسميها بالكفاءة الختامية.

أملنا، تقديم ما هو مناسب في القسم الأول الخاص بضبط مفاهيم التفكير الشرقي وخصائصه، وقضايا ومسائله المعقدة حول الإنسان والألوهية والعالم؛ حيث تتماشى مع المناقشة الداخلية، أثناء إلقاء المحاضرات، وعليه يقع على عاتق المطبوعة مشاركة الجميع في تفاصيل المواضيع التي كانت موجودة في الحضارات الشرقية القديمة، والتي لا تزال محل نقاش مفتوح؛ وهنا تظهر الفروق الذهنية في كيفية تناول طريقة فهم الفكرة الفلسفية حول الموضوع، من خلال الاستعانة بالمطبوعة، وتحضير ملخصا لها قبل بداية الدرس؛ وهذا يعتبر محفزا كبيرا لتحسين المستوى العلمي للطالب، بدءا من تلقّي الدرس ثم الحصول على مطبوعة جاهزة تساعد على المطالعة والتركيز على ما يطلبه للمراجعة قبل إجراء الامتحان.

كما نذكر الطالب القارئ؛ بضرورة الاحتفاظ مطالعة المطبوعة، التي هي عبارة عن "محاضرات ملخصة وفق البرنامج"؛ أي كمدخل عام للتفكير الفلسفي الشرقي وللحضارات القديمة التي سبقت التفكير اليوناني العقلاني كما يبدو. وليس مطلوبا منا عرض كلّ شيء عن فلسفة الشرق القديم، بحكم أننا نوضح أساسيات التفلسف في الحياة فقط، منها: وجود الإنسان (العقل، النفس، الأخلاق، الاجتماع)، وأيضا وجود العالم (مبحث الطبيعة، المادة، الحركة، نظرية الخلق).

أردنا من خلال هذه المطبوعة البيداغوجية إضافة جديدة حول مراحل تطور التفكير البشري منذ القديم الى يومنا هذا، منها: تقديم شروحات لمصطلحات، وأسماء الأعلام من المفكرين والفلاسفة والحكماء، وذلك من أجل اكتمال المعنى المطلوب حول التفكير الفلسفي في الشرق القديم؛ فلا يعقل مثلا التعريف بالتفكير الفلسفي عند حضارة من الحضارات القديمة، دون تحديد حكيم من حكمائها؛ تجاه ما كان يدعو إليه من تعاليم، ومن ثمّ تُبنى مواقفنا نحن أيضا من المسائل التي تناقشوا فيها، خاصة إذا كانت قضايا لها علاقة بالراهن، فلا بد من الإشارة إليها لمعرفة.

في الأخير؛ نأمل من خلال هذه المطبوعة البيداغوجية أن تكون السند الفعلي للطالب القارئ في مرحلة الليسانس-فلسفة وما يجاورها من مجالات فكرية وعلمية وثقافية، في إطار المحاضرات والدروس المبرمجة في المقررات الدراسية. كما نأمل تقديم الإفادة الضرورية الواجبة للباحث من الناحية المعرفية والمنهجية ليستفيد منها كما شاء، وبالله التوفيق لكلّ مثابر في الدراسة.

الدكتورة/ فاطمة الزهراء بكوش

(أستاذة محاضرة بجامعة الجزائر-2، قسم الفلسفة)

الجزائر في: 15/11/2024 م

مبحث خاص : قراءة في برنامج الفكر الشرقي القديم وأهدافه.

نحاول في هذه المطبوعة البيداغوجية، توضيح القراءة النموذجية لبرنامج الفكر الشرقي القديم. وهو موجّه لطلبة الليسانس، السنة الثانية-فلسفة، وكونها وحدة أساسية، لأنها تُحظى بالأهمية الكبيرة لدى الطالب منذ بداية السنة الدراسية. وقبل تقديم حيثيات هذا البرنامج، فإننا نحاول التركيز على ثلاث نقاط أساسية منها:

أولاً/- تدرّيس الفكر الشرقي القديم.

ثانياً/- أهمية البرنامج في مرحلة الليسانس.

ثالثاً/- الهدف العام من تدرّيس المقياس.

كما هو مطلوب؛ في هذه المطبوعة البيداغوجية، وفق النقاط الثلاثة المذكورة، فإننا سوف نهتم بمنطلقات التفكير الفلسفي الإنساني منذ القديم، ومنها : إعادة النظر في الإرهاصات الأولى لبدايات التفكير الإنساني، طبيعة بشرية مجبول عليها الإنسان في هذا الكون، لاسيما تداعيات الفكر الفلسفي العقلي لدى شعوب الشرق (الحضارات القديمة)، ثم الإحاطة بموضوعات الفكر الشرقي ومحتوياته، وأبرز ممثليه بدءاً من حضارة مصر القديمة، إلى الفكر الصيني مع حكيم من حكمائها، منهم: كونفشيوس، ثمّ علينا توضيح بدايات الفكر الهندي، وبالخص الحكيم بوذا، ومع الفرس (خاصة ماني، وزرادشت)، وصولاً إلى تفكير حضارة بلاد الرافدين، وتختتم بمناقشة أسباب غياب الأثر الورقي المكتوب (التدوين الورقي) في هذا الفكر الشرقي.

ونذكر هنا؛ أنّ المطبوعة البيداغوجية تتناول محطات أساسية في تاريخ التفكير الشرقي القديم، حيث تركّز على الأهم ما جاء في البحوث السابقة، دون التعمّق أو تعقيد. وننوّه هنا إلى أنّ تدرّيس مقياس الفكر الشرقي القديم، محصور في سداسي واحد فقط، وهو وقت ضيق جداً، لا يمكن الإحاطة بالموضوع من كلّ الجوانب، لذلك؛ ستختصر المسافة في النقاط المطلوبة في البرنامج، والالتزام به واجب، من باب تدليل الصعوبات في فهم بعض المصطلحات أو عرض المسائل الفكرية والفلسفية والعلمية وغيرها، من الأمور التي يجب فهمها أثناء تدرّيس المقياس .

هنا تأتي الحاجة الى انجاز هذه المطبوعة من باب تسهيل العملية البيداغوجية فيما يخص المقياس المُدرّس، ثمّ تقديم المساعدة للأستاذ المطبّق الذي يحاول تناول نصوص فلسفية حول الفكر الفلسفي الشرقي، ممّا تقتضي الضرورة التنسيق بين الأستاذ المحاضر، والأستاذ المطبق في تقديم الدعم اللازم لمعرفة الطالب القارئ.

أما عن أهمية البرنامج في مرحلة الليسانس، وللسنة الثانية خاصة، فهو ضروري جداً، لتحصيل الطالب بعض المكتسبات المعرفية، او لمعرفة تاريخ الأفكار الفلسفية التي انبثقت منها بعض المسائل المعقدة، ولا يزال الإنسان يناقشها ، ويبحث في كنهها، وخلفياتها وأبعادها، كما هو موضح في محتوى المادة، منها :

- وجوب معرفة الإرهاصات الفلسفية ومغامرات العقل الأولى في الفكر الشرقي خاصة (الإنسان، الطبيعة، الخلود، الألوهية، القانون، العدل، المجتمع، قبل التطرّق الى معرفة تطورات المباحث الفلسفية الكبرى في عصرنا الراهن).
- أهمية التعرّف على الفكر المصري (نظريات العدالة وفلسفة الماعت -أي الحق والاستقامة)، وكذا معرفة بعض النظريات العلمية القديمة).
- الفكر الصيني (المبادئ الأخلاقية الكنفوشية).
- الاطلاع على الفكر الهندي (منها : البوذية).
- فكر حضارات ما بين النهرين و الفكر الفارسي (المانوية، الزرادشتية). الفكر البابلي، الفكر السومري.

إذن؛ الفكر الشرقي وفق البرنامج الدراسي، لا يكفي للتدقيق فيما جاء به الفكر الشرقي القديم من معارف في شتى المجالات، وإنما الهدف الأسمى من انجاز هذه المطبوعة ، هو التركيز على مراحل تطور التفكير الفلسفي الإنساني منذ ظهوره في الشرق، حتى يتسنى للطالب القارئ أن يعرف كيفية اتصال الغرب بالشرق، لاحداث ذلك التواصل المعرفي بين بني البشر، وأنّ كل حضارة من الحضارات الإنسانية كان لها اسهامات جلية، وليس ما يروّج له في الغرب، على أنّ الانطلاق كان

من الحضارة اليونانية، وتتوقف عند فلاسفة ومفكري الغرب. وحتى نكون منصفين، سوف نقدّم في هذه المطبوعة ملامح التفكير الشرقي القديم الذي تأثرت باقي الحضارات المجاورة واللاحقة على حد سواء.

أمّا عن الهدف العام من تدريس مقياس الفكر الشرقي القديم، فهو واضح، لمعرفة مراحل تطور التفكير الإنساني منذ اللحظة الولى التي تأمل فيها وجوده، كمتأمل في الحياة، وحيثيات وجوده بين الكائنات وهو في الصدارة. . ولأن تدريس هذا المقياس كان من حظ أساتذة قسم الفلسفة، فهو بحث متجدد ومستمر، وكل سنة دراسية ، نكتشف الجديد في تاريخ الأفكار الإنسانية بعد المناقشات طبعاً. لكن تدوينه على شكل مطبوعة، كان من الضروري توفيره للأستاذ أولاً، ثم الطالب ؛ أو حتى يستفيد منه الجميع، لأنّ مواضيعه مشوّقة كثيراً، وتتبنى على الفضول الذي يرواد الطالب المجتهد، فيبني عليه معارفه دون إكراه، وإنما تعبر عن مدى الرغبة في الاستفادة من المعارف من أجل تحديد موقف فلسفي معين، لا سيما في بعض المسائل التي لم تجد لها جواباً صريحاً.

في هذه المطبوعة؛ سيجد القارئ ما يفيدّه ، أو يعينه على فهم بعض المواضيع الفلسفية، انطلاقاً من محطات البرنامج المذكور سابقاً، ومع ذلك سوف تعزز هذه المطبوعة ثقة القارئ بمصداقية ما يبحث عنه ؛ وإن كانت الدراسات الكثيرة حول الفكر الشرقي القديم لا يمكن له الاحاطة بها، إلا بقدر ما يستوجبه المقياس من معارف ومعلومات وإيضاحات، لتكوين مرحلة جديدة من التفلسف الهادف في إطار المراجعة.

نامل أن تؤدّي هذه المطبوعة البيداغوجية في نهاية المطاف الى اثراء معارف القارئ، وأن تجد القبول والرعاية من طرفه، في لحظة معينة من التفكير والعمل؛ ولأنّها وجدت من أجله أثناء الدراسة وما بعدها .

الفصل الأول

طبيعة التفكير الشرقي القديم

الفصل الأول: طبيعة التفكير الشرقي القديم وخصائصه.

المبحث الأول: طبيعة التفكير الشرقي القديم.

جرت عادة المؤرخين للفكر الفلسفي في الغرب والشرق على حد سواء، وباستثناءات قليلة على أن يبدأوا تاريخ الفلسفة من الفيلسوف اليوناني **طاليس** (5 ق.م) الذي عاش فيما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. والحقيقة التي كشفت عنها الدراسات الحديثة في الفكر الشرقي القديم، انه نقطة البداية الحقيقية للتفكير الفلسفي، فالفكر العقلاني للانسان بدأ منذ بداية ظهور الانسان على الأرض، فأياً ما كان الانسان، وأياً ما كانت البيئة التي ظهر فيها على وجه الأرض، فهو بلا شك قد فكّر في قضايا الوجود والألوهية وأصل العالم الطبيعي⁽¹⁾.

وإذا ما عدنا للحديث عن أصل الفكر الفلسفي الانساني ككل؛ يرجح المؤرخون بأنّه بدأ مع الفكر الشرقي القديم وليس مع اليونان القدامى من حيث الترتيب الزمني للحضارات الانسانية القديمة؛ لأنّ التاريخ المكتوب للحضارات الشرقية القديمة يعود الى حوالي القرن الأربعين قبل الميلاد ، بينما لم يكن لبلاد اليونان وجود أصلاً في ذلك التاريخ. فكيف نتصوّر أنّ الانسان ظلّ خلوا من التفكير العقلي الفلسفي أو العلمي كلّ هذه القرون، ليبدأ فقط مع اليونان وفي القرن السادس قبل الميلاد⁽²⁾.
والحقيقة؛ فإنّ دراسة فكرنا الشرقي القديم وتحليل نصوصه بعد التنقيب عن ما لا يزال مختفياً منها هو واجب علمي على أبناء تلك الحضارات الشرقية قبل أن يكون واجبا على مؤرّخي الحضارة من الغربيين^(*). وما نوّد الإشارة إليه، أنّ لهؤلاء المؤرّخين والآثاريين الغربيين، كلّ الفضل في الكشف عن وثائق وبرديات الحضارات الشرقية القديمة، وفي لفت الأنظار الى أهمية الحضارات الشرقية القديمة، ودورها الخطير في التأثير على نشأة الحضارة الغربية في بلاد اليونان⁽³⁾.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص9 من المقدمة.

(2) المرجع نفسه، ص12.

(*) وما نفعله نحن الآن هو مجرد تأكيد على هذا الاتجاه في العودة الى التأريخ الفلسفي بدءاً من مساهمات الحضارات الشرقية القديمة رافضين خرافة المعجزة اليونانية في نشأة الفلسفة والعلم.

(3) المرجع نفسه، ص12.

أما إذا عدنا الى تحليل المقصود بالفكر الشرقي القديم، وهو الأهم في هذه الدراسة الوجيزة؛ فإنّ "ما نعنيه بالفكر الشرقي القديم هو الفكر الذي أبدعه أبناء حضارات الشرق القديمة سواء في مصر أو في الصين أو في فارس أو في بلاد ما بين النهرين، وذلك فيما قبل ظهور الفلسفة في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد"⁽¹⁾. وحتى نكون منصفين لاسهامات هاته الحضارات، فإنّ هذا التحديد التاريخي ليس نهائيا. فكلّ ما أبدعه الإنسان الشرقي فيما قبل الميلاد، يعتبر موضوعا للدراسة في اطار الفكر الشرقي القديم، وإن كان من الواجب أن نفتصر قدر الإمكان على الإبداع في ميدان الفكر الفلسفي، وخاصة في موضوعات الألوهية وتصوّرات نشأة العالم، والأخلاق والسياسة ونشأة المجتمعات... الخ الموضوعات التي تبلور في اطارها معنى الفلسفة فيما بعد عند اليونانيين"⁽²⁾.

وهذا ما نريد توضيحه حول أفكار الشرق القديم، وكيف تأثرت بها الحضارة اليونانية، لأنّه لا شيء يأتي من العدم بخصوص تناول تلك الموضوعات الانسانية، ولا تزال تتناقله الحضارات عن بعضها. وإذا كان معنى الفلسفة الأصيل هو البحث العقلي في قضايا الكون والإنسان عموما، فإنّ المفكر الشرقي القديم، كان أول من بحث في هذه القضايا، وكان أول من تبلور لديه بواعث الاهتمام بها؛ فقد كان من الطبيعي أن يتساءل الإنسان منذ ظهوره على هذه الأرض عن أصله، وعن أصل هذا العالم الطبيعي الذي يعيش فيه، وأن يبحث عن تفسيرات للظواهر الطبيعية المختلفة، كما كان من الطبيعي أيضا أن يفلسف علاقته بالطبيعة وبظواهرها، اذ لم يكن ممكنا..."⁽³⁾.

ومن الطبيعي في حديثنا عن بدايات تفكير الانسان أن يربط علاقته بالطبيعة وظواهرها؛ إذ لم يكن ممكنا للإنسان وهو لا يزال يجهل التفسير العلمي لمعظمها_ إلا أن يتعامل مع هذه الظواهر فيقدر الظواهر الخيرة وينظر اليها بقداسة بلغت حدّ العبادة، ويتجنّب الظواهر الشريرة ويخشأها لدرجة أن يعبدها أيضا ويقدم لها القرابين حتى يتّقي شرّها "⁽⁴⁾، ومن ثمّ كان من الطبيعي أن يبدأ التأليه

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص 17.

(2) المرجع نفسه، ص 17. بتصرف.

(3) المرجع نفسه، ص 17.

(4) المرجع نفسه، ص 18.

قديمًا بتأليه الظواهر الطبيعية، ثم يتطوّر إلى تأليه بعض البشر، كالملوك والأبطال؛ ثم يتحوّل بعد تأمل وتفكير عميقين إلى تأليه الإله الواحد الذي يعلو على تلك الظواهر الطبيعية، كما يعلو على البشر أيّا كان وضعهم الاجتماعي وسلطتهم وسطوتهم⁽¹⁾.

ولم يكن للمفكر الشرقي أن يهتمّ " بقضايا الانسان: طبيعته أي ماهيته، وصور فاعليته في الحياة، أي: البحث في حياته السياسية والأخلاقية والدينية، ومحاولة فهمها وتطويرها عبر الظروف البدائية التي بدأ يتغلّب عليها ذلك الإنسان شيئاً فشيئاً. ومن هنا؛ يمكننا دون أدنى شكّ أن نفترض وجود فلسفات شرقية قديمة في مختلف بلدان الشرق القديم السابقة بقرون عديدة على ظهور بلاد اليونان، وأنّ هذه الفلسفات عالجت هذه القضايا وناقشتها"⁽²⁾؛ على نطاق واسع في اطار مسألة التلاقي الحضاري بين حضارات الشرق القديم والحضارة اليونانية، أصبحت من المسلّمات التي لا يماري فيها أحد، وأصبح من مهام الباحثين في مختلف بلاد العالم اليوم الكشف عن صور أكثر لما كان سائداً من تعاون حضاري بين تلك الحضارات، والكشف عن صور أكثر للتأثير والتأثر الذي تمّ بينها، والوجه الإيجابي لهذه المهمة يبدو في أنّ فهم تاريخ الفلسفة الغربية، لم يعد ممكناً بصورة دقيقة وكاملة، إلّا عبر إدراك المؤثرات الشرقية فيها، سواء قبل ظهورها أو بعد ظهورها، وتطوراتها المختلفة"⁽³⁾.

لأجل ذلك؛ تمتعت بلاد الشرق القديم خاصة...الحضارة المصرية وحضارة بلاد ما بين النهرين بالاستقرار السياسي والاجتماعي منذ فجر تاريخها، كما تميّز نظام الحكم فيها بالمركزية والنظر إلى الحاكم نظرة تقديس واحترام شديدين، لما يمثله من سلطة تتحكّم في كلّ شيء؛ لأنّها تتحكّم بداية في سير الحياة على الأرض أي المياه، كما أنّه مصدر الحكمة الملهمة، وقد قدّست شعوب الشرق القديمة حاكمها لدرجة عبادته والنظر إليه على أنّه الإله المتصرّف في كلّ شيء"⁽⁴⁾.

وهذه ميزة التفكير الشرقي القديم التي يغلب عليها طابع التقديس لكلّ شيء غامض، لا يمكن

(1) مصطفى حسن النشار، المرجع نفسه، ص 18.

(2) المرجع نفسه، ص 18.

(3) المرجع نفسه، ص 19.

(4) المرجع نفسه، ص 20.

تفسيره تفسيراً علمياً مقنعاً، ممّا نجم عنه تغلب الأساطير أثناء تفسير بعض الظواهر الطبيعية. لذلك يعتبر "عامل الاستقرار وتلك النظرة التأليهية للحاكم رسّخت في ذهن الإنسان الشرقي القديم حبّ الطاعة والالتزام، وجعلته مؤمناً أشدّ الإيمان بضرورة الحفاظ على النظام الذي تقرّره الدولة، طالما أنّه كان في معظم الوقت نظاماً يقوم على العدالة واحترام الأعراف والتقاليد الراسخة"⁽¹⁾، حتى وإن غلب عليه طابع الأسطورة، المهم في ذهنية الإنسان الشرقي فكرة التأليه، مفطورة فيه بحبّ الالتزام بالقوانين التي كانت تفرض عليه دون مجاراتها أو التمرد عليها. والمثال على ذلك؛ تلك القوانين الوضعية (موضوعة في جدارية وتعتبر بمثابة دستور) التي فرضها ملك بابل "حمورابي"؛ حيث تؤكّد ضرورة الحفاظ على النظام لتحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد.

إنّنا عندما نسوق هذا المثال عن العدالة الاجتماعية التي تغنى بها البابليون في حضارة الشرق القديم، يشير بالضرورة الى إعادة النظر في التفكير الشرقي القديم، أي ما يحمله من خصائص لم تعرفها الحضارة اليونانية أو لم تصل إليهم، عندما يتعلق الأمر بدستور الآثينيين، من أجل تحقيق الديمقراطية مثلاً؛ وعليه كان لزاماً علينا التأكيد مرة أخرى الحديث عن خصائص ومميزات التفكير الشرقي القديم التي وصلت الى الحضارة اليونانية بطريقة مباشرة أو غيرها، والذي سوف نخصص له مبحثاً للتعرف على أهم منجزات التفكير الشرقي القديم والذي ينسبونه الى اليونان على أنّهم كانوا السباقين في إنتاج بعض الأفكار العلمية، ولنا في ذلك شواهد تاريخية تتحدث عن خصوصية التفكير الشرقي القديم على أنه كان تفكيراً فريداً من نوعه، فكيف ذلك ؟

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة ، ص20.

المبحث الثاني: خصائص التفكير الشرقي القديم.

أ/- الغاية من دراسة التفكير الشرقي القديم.

إنَّ الغاية من دراسة التفكير الشرقي القديم تتمثل أساسا في التأكيد على أهمية الاسهامات التي قدمتها أمم وحضارات قديمة قدم التاريخ ، ومن أجل التأكيد على أهمية الدراسة الموضوعية لمواضيع يمكن إرجاعها الى أصولها دون الانحياز الى إيديولوجية عمياء، تنظر من زاوية ضيقة. لذلك يتوجب علينا في اطار دراسة خصائص التفكير الشرقي القديم وما له من أفكار لا تزال ليومنا تناقش ويعاد التعمق في تقديمها كحقيقة لا يمكن اغفالها عن المشهد الذي صنع حضارات، أي أننا ندرس تاريخ الأفكار التي جعلت حضارة انسانية معينة تستمر لمدة أطول، ولا أدل على ذلك حاجتنا لدراسة موقفنا من وصف حضارة معينة بالعبرية والابتكار، وأخرى عكس ذلك دون وجه حق. ونقصد بهذا موقف المؤرخ " زيلر " الذي يرى " أنَّ الفلسفة الإغريقية _مثلا_ ابتكار إغريقي لم يشاركهم فيه أحد، وأننا لا نجد عند الأمم التي قبلهم فلسفة بمعناها الصحيح القائم على التفكير المستقل عن الدين، وظهور الفلسفة اليونانية يعود_ في رأيه_ بالدرجة الأولى لمواهبهم الخاصة مثل القدرة على الفهم والقدرة على التخيل ، والقدرات العقلية والانفعالية، وقد اجتمعت كلها بشكل مثمر"(1).

إنَّ هذا الموقف دلالة واضحة على الانحياز المفرط في وصف الحضارة اليونانية على باقي حضارات الشرق القديم، وهو ليس بالجديد على الباحثين في تاريخ الأفكار ومدى فائدتها في بناء الحضارات الانسانية. ولا يمكننا الجزم بأنها حقيقة حتمية بوصف الحضارة اليونانية بالعبرية القادمة من العدم، وعدم الاحتكاك والتفاعل مع باقي الحضارات المجاورة أو التي كانت قبلها. لكن علينا التحلي بالموضوعية على الأقل في وصف الأبتكار المحقق لدى الاغريق بأنه لم يشاركهم فيه أحد. كما قلنا؛ إذا عدنا لدراسة التفكير الشرقي القديم بالموضوعية المطلوبة، علينا إعادة النظر في الخصائص العامة التي جعلت من أفكاره واصله للحضارات وإلى يومنا هذا، تعجز عنه العقول في وصف تركيباته، وإن كانت في أحياب كثيرة تأخذ نظرة سلبية لبعض الأساطير التي غلبت عليها، ومع ذلك سوف نحاول التركيز على بعضها مهما كانت وضعيتها، وهي:

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص5 من المقدمة.

إنّ ذلك التطوّر البطيء للفكر الفلسفي في الشرق القديم، إذا ما نظر إليه بعض المعجبين الغربيين؛ أي: في العمق التاريخي للحضارات الشرقية العريقة؛ "سنجد أنّ معظم الفلسفات التي ظهرت فيها،... قد وُجدت في كتابات تضافر فيها جهد الجماعة دون أن تنسب الى فرد معين، فضلا عن أنّ الكتابات الفردية، وهي قليلة وجدت على مسافات زمنية متباعدة ممّا يوضّح أنّ النقلات النوعية التي تطوّرت من خلالها أفكار الشرقيين، قد جاءت على فترات متباعدة، ولعلّ سبب ذلك... في أنّ فكر فيلسوف الشرق القديم جاء في الأغلب معبّرا عن فكر الجماعة التي ينتمي إليها، مع تجديد طفيف، ويتمثل تراث شعبه الديني والأخلاقي والاجتماعي والسياسي"⁽¹⁾. وحينما يأتي الفكر الفردي معبّرا عن فكر الجماعة بهذا الشكل التصويري التبريري يتحوّل هو ذاته إلى جزء من الفكر الجمعي لكلّ أفراد الشعب. ومن ثمّ فهم يتقبّلونه بما فيه في بعض الأفكار ويصبح موروثا يتناقله كل أفراد الشعب أو قطاعات كبيرة منه، فليس ما قدّمه "بتاح حوتب" مفكّر القرن السابع والعشرين قبل الميلاد في مصر القديمة، إلّا خلاصة التجربة الفكرية للمصريين القدماء منذ فجر تاريخهم، وبذلك تناقله المصريون جيلا بعد جيل، وأصبح من الموروث المقدّس في ميدان الفكر الأخلاقي والسياسي"⁽²⁾.

وهذا الوصف المجحف في حق الحضارات القديمة على أنّه تباطؤ في التفكير، لا يعني بالأساس تباطؤ في العمل، من حيث السرعة في الانجاز من عدمه. وإنّما يمكن القول على أنّ التفكير الشرقي القديم، كانت له استطالة في الزمن عايشته الشعوب كتراث لها، وكان من صنيع ضميرهم الجمعي في التعايش على أفكار حكمائهم عمليا، ونتاجة عن حاجة ملحة متى اقتضت الضرورة، ومثال ذلك: فيضان النيل كان ملهما لوجود أفكار عملية نتج عنها إعادة رسم الجداول، وهو ما يُعرف بـ "علم الهندسة". فلولا حادثة الفيضانات لما تمكّن المصريون من معرفة الحاجة العملية للسقي والزراعة بطرق علمية عملية. وكذلك بخصوص عملية تحنيط الموتى، التي كانت ملهمة لظهور علم الكيمياء، وغيرها من الحاجيات العملية التي قيل بها عن الفكر الشرقي القديم، بأنّه كان نتيجة الحاجة، وليس علما من أجل العلم عند اليونان.

(1) مصطفى حسن النشار، المرجع السابق، ص20 بتصرّف.

(2) المرجع نفسه، ص21.

وفي هذا الأمر تتمثل قيمة وعظمة الإنجاز الجماعي في الحضارات الشرقية القديمة؛ إذ ساهم هذا التلاحم بين الأفراد داخل الجماعة الحضارية الواحدة أن ينجز الجميع مهامهم العملية بنجاح تام، فالكّل قد انصهر ليشكّل وحدة فكرية واحدة تجتمع على مبادئ أخلاقية محدّدة تنظّم شؤون الحياة "كماعت" في مصر القديمة، و"لي" في الصين القديمة، وكانت هذه السّمة هي الدافع الذي دفع المصريين القدماء، للالتفاف حول تلك الإنجازات المعمارية الكبرى في تاريخهم، مثل: الأهرامات والمعابد العظيمة؛ فلا يمكن أن يكون ذلك نتيجة إبداع فردي في مجال علمي معين، بل تضافرت كلّ جهود المفكرين والعلماء في مختلف التخصصات، لتشييد هذه البناءات الضخمة المعجزة، إيماناً منهم بضرورتها من الناحية الدينية والسياسية⁽¹⁾، ولم يدركوا حينها أنها سوف تؤثر في الحضارات المجاورة أو اللاحقة.

كما لم تنظر الى ذريعة التباطؤ في التفكير الشرقي القديم، سوف يقلّل من شأن الانجازات الضخمة التي لا تزال شاهدة على الإبداع الحضاري من كلّ النواحي، والذي تحوّل فيما بعد الى تراث عالمي، أو من عجائب الدنيا في زماننا، حيث لا يضاهيها إنجاز آخر في غاية الدقة والانتقان. وعليه نقول للذين يقلّلون من التفكير الشرقي القديم على أنه تفكير أسطوري لا عقلائي، وأنّه تفكير بطيء بعيد كلّ البعد عن الجانب النظري. هو حكم قسري على انجازات حضارية بطيئة، كذلك من حيث التأثير في معتقد الحضارات اللاحقة، منها: الحضارة اليونانية التي انحاز بعض الباحثين لها.

ب/ فكرة التأليه:

لقد غلب على الفكر الشرقي الطابع الديني والأخلاقي، فحينما كان يفكر الإنسان الشرقي حتى في الطبيعة محاولاً تفسيرها؛ ارتبط ذلك لديه بأفكاره الدينية والأخلاقية، وليس هذا الأمر المستغرب من إنسان نجح في قهر الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان. فكان عليه أن يركّز تأملاته بعد ذلك في قضايا الأخلاقية والاجتماعية؛ فكثر الأفكار الأخلاقية التي تصبّ كلّها في وضع معايير للسلوك القويم داخل المجتمع⁽²⁾، وبدأت له ضرورة الربط بين هذه المبادئ الأخلاقية التي تنتظم على أساسها

(1) المرجع السابق، ص 22 .

(2) المرجع السابق، ص 23.

حياته الدنيا بمبادئ ما ورائية، فكان إيمانه بالخلود والعالم الآخر، مثلما حدث في مصر القديمة، أو كان إيمانه بالخلاص والاتحاد بالبراهمان كما في الهند القديمة⁽¹⁾ والخلاص من الظلمة مثلما حدث عند الزرادشتية. وهكذا كانت فكرة الخلاص التي ينظر إليها انسان الشرق القديم ماثلة أمامه من أجل البحث عن حياة روحية يشعر فيها بالعناية الإلهية له، مقابل تقديم المقابل، وهو الخضوع والطاعة.

إنَّ نشأة التأليه في الفكر الشرقي جاء نتيجة تأمل المفكر الشرقي، لما حوله من مظاهر الطبيعة، ومشاهدة كيف تلعب الدور الأهم في حياة البشر، وأنه لولا هذه المظاهر ما كان لحياته أن تكون وأن تستمر، فكانت عبادة المظاهر الطبيعية وتأليهها، ثم تطوّر الأمر حينما اكتشف أنه لا بد من وجود إله أعلى خفي غير ظاهر، هو الذي أبدع كلّ هذه المظاهر الطبيعية، وإن كان وجوده يتمثل فيها ويبدو من خلالها؛ فكانت عقيدة التوحيد بصورها المختلفة في مصر القديمة، ولدى فلاسفة الهند ولدى زرادشت⁽²⁾، وحتى عند باقي الديانات، تمثل عبادة ملفقة للانتباه، من منطلق أن هذا الإله الخفي يملك القدرة والتدبير على تنظيم الحياة ككلّ. المهم هو الاعتراف بوجود حياة روحية عاشها الإنسان الشرقي القديم، تظهره بالقرب من أعظم قوة تستحق اللجوء إليها في كل حين.

لقد تغلغت الحياة الروحية في نفوس الشرقيين وأصبحوا يرون أنّ جوهر الوجود هو تلك الروحانية الفاعلة لكل مشاعر الكون والمنبثة فيها، فكان احترامهم الشديد لهذه الطبيعة ولخالقها بقدر احترامهم لما توصلوا إليه من مبادئ أخلاقية سديدة، ساعدتهم على أن يكونوا مدنيّتهم ويطورونها عبر القرون، إنّ الاقتران بين الدين والأخلاق بل بين الدين والأخلاق والفكر والعلم، وكل مظاهر الحضارة في بلاد الشرق القديم كان عاملا أساسيا من عوامل رقيهم الحضاري وتقدمهم التكنولوجي، إنّ هذا التأليف بين المظاهر الحضارية المختلفة خاصة الأخلاق والدين والعلم، هو ما يميّز وبشكل حاسم بين حضارات الشرق عموما والحضارة الغربية⁽³⁾، فبينما ينزع الشرقيون دائما إلى التأليف بين عناصر الحضارة في منظومة واحدة، نجد أنّ الحضارة الغربية أحادية الاتجاه؛ فقد كانت كذلك في

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص23.

(2) المرجع نفسه، ص24.

(3) المرجع نفسه، ص24.

العصر اليوناني، حيث عقدت السيادة للفكر الفلسفي والتألق الأدبي، وكانت كذلك في العصر الوسيط حيث عقدت السيادة للدين، وهي كذلك منذ مطلع العصر الحديث، حيث السيادة للعلم والإهمال لكلّ العناصر الحضارية الأخرى⁽¹⁾.

ومهما كان هذا التصنيف؛ في ضبط مميزات الحضارة الإنسانية من الشرق نحو الغرب، نقول بأنّ اسهامات حضارة الشرق القديم، جليلة وواضحة من كلّ النواحي، ممّا يعني أنّ التقليل من مزاياها، هو اهمال بشكل عام للحضارة الإنسانية التي جمعت العناصر السابقة، أضف إلى ذلك فقدان الوازع الروحي مقابل المكسب المادي للحضارة الغربية مثلاً، هو فارق جوهري في استمرارية الحضارة الشرقية اليوم، في رفع التحدي لما تفتخر به الحضارة الغربية من وسائل تكنولوجية، لا ترقى أن تكون معياراً علمياً لصمود الحضارة الشرقية منذ قرون؛ ومنذ ظهور الحضارة اليونانية التي تعتبر محطة فكرية كمنطلق للعقل وسيادة سلطة العلم على الدين والأخلاق والأدب.

ج/ النزعة العملية البعيدة عن التنظير العلمي:

والحقيقة؛ أنّه ربما يكون عدم تسجيل فلاسفة علماء الشرق القديم إنجازاتهم الفكرية وأسرار مخترعاتهم العملية هو سبب هذا الاتهام؛ فقد فرض المفكرون والعلماء السريّة الشديدة على ما توصلوا إليه من أفكار ونظريات، فلم يبدو لنا منها إلاّ تلك الانجازات العملية في ميادين العمارة والطب والهندسة وغيرها⁽²⁾.

وبالطبع؛ فإنّ هذه السريّة كانت لها أسبابها السياسية والاجتماعية في بلاد الشرق القديمة، حيث كان العلم مقصوراً على طبقة الكهنة، أولئك الذين استخدموا علمهم وأفكارهم الفلسفية في فرض السيطرة على عقول الناس والهيمنة على كلّ مقاليد الأمور فضلاً عن أنّه كان من المستحيل في ذلك الزمان نشر العلم النظري والمداهب الفكرية بين عامة الناس، وذلك لجهلهم بقواعد القراءة والكتابة، فاقصر أمر تسجيل الأفكار والنظريات والأحداث التاريخية على قلة قليلة ممن عرفوا بالكتابة⁽³⁾.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص 24.

(2) المرجع نفسه، ص 24.

(3) المرجع نفسه، ص 25.

وعلى كل حال؛ فقد توالى المكتشفات الأثرية التي توضح مدى تهافت هذا الاتهام، حيث اكتشفت العديد من النصوص في مختلف بلاد الشرق القديم التي تؤكد وصول فلاسفة وعلماء الشرق الى صياغة مبادئ الكثير من العلوم وصياغة عناصر منهجية عديدة للمنهج العقلي في فهم القضايا الإنسانية، وعناصر جديدة للمنهج الاستقرائي في معالجة قضايا علوم الطبيعة، وعلوم الحياة المختلفة، فضلا عن صياغة مبادئ العلوم الرياضية خاصة الحساب والهندسة⁽¹⁾.

كما "يشير كثير من كتّاب الغرب الى الحضارة الإغريقية، كما لو كانت حدثا فريدا تتضاءل الى جانبه ما قدّمته كل حضارات الشرق القديم، فبينما كانت مدنات الشرق السابقة على مدنية الإغريق... ذات كفاية بالغة في الأمور العملية فإنها كانت جذباء من الناحية العقلية، لقد مارس ملايين الناس الحياة وخبروها قبل الإغريق؛ فماذا فعلوا بها ؟ لا شيء، لقد ماتت خبرة كل جيل بانتهائه"⁽²⁾. وهذه النزعة فيما يبدو، هي نزعة متطرفة، ومنحازة للفكر اليوناني، كمعجزة أو عبقرية إنسانية فريدة من نوعها. والدليل الآخر على وصف الحضارة اليونانية بالمعجزة ما قاله برتراند راسل: "في كل التاريخ ليس هناك شيء أكثر إثارة للدهشة بل ما لم يكن في الحساب_ كالظهور المفاجئ للحضارة في بلاد اليونان، إنّ كثير من مقومات الحضارة كان قائما منذ آلاف السنين في مصر وفي بلاد ما بين النهرين، ولكن عناصر ظلت تنقص هذه الحضارات الى أن زوّدها بها الإغريق، إنّ كان ابتكروه في المجال العقلي شيء فريد، لقد ابتكروا الرياضيات والعلم والفلسفة، وهم أول من كتب التاريخ ، وحتى العصر الحديث هناك من يتحدث عن العبقرية اليونانية كما لو كانت معجزة"⁽³⁾. بل إنّ الحضارة الإغريقية طوال تاريخها تستمد من الحضارات المجاورة عناصر تراثها بفضل رحلات كبار مفكرها وبخاصة الى مصر، فضلا عن رحلات الأجانب إليهم، يقول هيغل (Hégel)(1770-1831م): "إنّ الأصول الأولى للحضارة الإغريقية كانت مرتبطة بقدم الأجانب إليها، وكان الإغريق يشعرون تجاههم بشيء من الامتنان"⁽⁴⁾.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص25.

(2) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة ، سنة 2001م، ص5 من المقدمة.

(3) المرجع نفسه، ص6.

(4) Hegel ;G ;W ,F :The philosophy Of History tran,by J,Sibree,P228,

نقلا عن : جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص6 .

إنّ المفكرَ الشرقي عادةً يقدّم لنا نتائج تأملاته دون مقدماتها، وهو لا يفضل أن يطلعنا على تفاصيل الأفكار والتأملات والخبرات التي قادته إلى الاعتقاد في هذه الفكرة أو تلك، وإنما يقدم لنا خلاصة أفكاره وتأملاته في عبارات محددة يشوبها أحياناً الكثير من الغموض والألغاز نتيجة أنه لم يوضح لنا كيف توصل إلى هذا الرأي أو هذا المذهب الفكري المعين⁽¹⁾.

والحقيقة أنّ ذلك يرجع إلى خاصية أصيلة في الإنسان الشرقي عموماً هي أنه لا يجب الإغراق في التفاصيل ولا يجب الاستماع إلى التحليلات النظرية المجردة ؛ إنه دائماً يبحث عن النتيجة أو جوهر الفكرة دون أن يهتم بالتفاصيل، ومن ثم جاءت فلسفات فلاسفة الشرق القديم معبراً عنها في عبارات مقتضبة تصل إلى الفكرة المطلوب الاعتقاد فيها من أقصر الطرق . ولعلّ ذلك هو سرّ ذلك التلاحم الذي نجده بين المفكر الشرقي القديم وواقعه، وسرّ ذلك التفاعل بين ما أطلقه فلاسفة الشرق من أفكار ومذاهب، وبين المعتنقين لها من معاصريهم، أو حتى ممّن أتوا من بعدهم ؛ إذ من الأفكار بمثابة المرشد الذي يهدي الناس، وتتحول فيما بينهم إلى إرث عام يتناقلونه ويتأثرون به متناسين شيئاً فشيئاً نسبته إلى صاحبه حتى يصبح فكراً مجهول المصدر⁽²⁾. ومع ذلك تترسخ في أذهانهم تلك الأفكار بالخبرة لتصبح جزءاً من ملحمتهم الدينية، أو كالمعتقد السائد دون تقديم أيّ نقد لها، بل تسعى طائفة منهم إلى تقديسها بطرق غريبة أحياناً بعيدة كل البعد عن العقلانية المشروعة، وهو الأمر الذي يجعلهم يؤمنون بالأساطير التي ترتقي إلى درجة التقديس ومن ثم التأليه .

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص25.

(2) المرجع نفسه، ص26.

المبحث الثالث: نشأة الفلسفة في الشرق القديم.

يكاد يجمع المؤرخون للفلسفة _ لا يوجد تحديد _ على أنها قد نشأت في بلاد اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويؤرخ لبدائيتها عادة بطاليس الذي عاش على ساحل أيونيا وولد بمدينة ملطية في عام 624 ق.م تقريبا.

والحقيقة أن معنى خاصا قد تبلور للفكر والحكمة عند اليونانيين منذ أطلق فيثاغورث الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير لفظة " Sophia_Philos"، أي محبة الحكمة لتكون اسم العلم الذي تداولته الألسن والأقلام للدلالة على ذلك النوع من التأمل والتفكير العقلي فيما يصادف الإنسان من مشكلات نتيجة لما يطرحه من تساؤلات حول علاقته بهذا العالم الطبيعي الذي يعيش فيه، وعن أصل هذا العالم، وعن علاقته بالآخرين من بني جنسه، وعلاقته بتلك القوى الإلهية الخفية التي أبدعت العالم الطبيعي... الخ⁽¹⁾.

ولم يكن لفظ الفلسفة دالا على ما نعنيه اليوم فقط من تفكير مجرد وتحليل عقلي للمشكلات الإنسانية والميتافيزيقية، بل كان يدل كذلك على أي نشاط عقلي يبذله الإنسان بهدف السيطرة على الطبيعة وفهم ظواهرها الغامضة، ومن ثم كانت الفلسفة اسم علم يطلق على ابداعات الإنسان اليوناني في كل الميادين الفنية والأدبية والعلمية والدينية والفلسفية، فقد كان فيلسوفا كل من يفكر ويتأمل ويبذل في شتى الميادين، وعلى ذلك فالفلسفة كاصطلاح كانت تعني محبة الحكمة بهذا المعنى الشامل الذي ظل ملتصقا بها منذ العصر اليوناني وحتى مطلع العصر الحديث الذي شهد بداية الانفصال الفعلي للعلوم المختلفة عن الفلسفة.

إن المؤرخ الغربي منذ أرسطو (Aristote) إلى الآن "غالبا ما يميل إلى التأكيد على أن الفلسفة والعلم اختراعا يونانيان، وأنهما يبدأان من طاليس الملطي في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وقد تابع معظم المؤرخين العرب المؤرخ الغربي"⁽²⁾ في هذا الاعتقاد بحجة أن الفلسفة قد ظهرت لدى اليونان في القرن السادس قبل الميلاد من خلال نقد اليونانيين الحرر المحاييد لتراثهم واستنادا على

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص29.

(2) المرجع نفسه،، ص30.

خصائص تميّز بها الإنسان اليوناني دون سواه من البشر في ذلك القرن، وإنه إذا كان ثمة أفكار فلسفية شرقية قديمة فهي أفكار أسطورية يغلب عليها الطابع الديني والأخلاقي، والأفكار الدينية أسطورية بينما الأخلاقية مجرد حكم ومواعظ عملية....⁽¹⁾.

ويذهب "جيمس هنري برستيد (J. H. Breasted)" في كتابه "انتصار الحضارة"، وبمعرض المقارنة بين حضارة الشعوب الشرقية القديمة، والحضارة اليونانية، إلى القول: "إنّ بلاد الشرق القديم وليست بلاد اليونان، هي التي كانت مهد المدنيات والحضارات، وهي المعلم الأول للبشرية في النواحي المادية والروحية على حدّ سواء. ففي مصر^(٢) ومنذ آلاف السنين، بدأ الإيمان بالبعث والحياة الآخرة، كما بدأت الدعوة إلى التحليّ بالأخلاق الفاضلة، التي تكسب الفرد الذي يتجمل بها، رضى الآلهة، وبالتالي السعادة الآخروية." إنّ الشرق القديم هو مهد المدنيات والحضارات ... فعلى ضفاف النيل بدأ الناس منذ آلاف السنين يؤمنون بالبعث ويدعون إلى حياة طاهرة، ووصلوا منذ آلاف السنين إلى أسمى ما يفكر فيه الناس من دعوة إلى الخلق الكريم⁽²⁾.

ويساند هذا الرأي كذلك؛ بول ماسون أورسيل (P. m. Orsselle) في كتابه "الفلسفة في الشرق" عندما قال: " إنّ التفكير الفلسفي الغربي لا يمكن فهمه أو النظر إليه بصورة مجردة أو منفصلة عن تاريخ التفلسف الإنساني، وإنما ينبغي النظر إليه على أنّه جزء من تاريخ الفكر العالمي؛ لأنّ التاريخ الصحيح هو التاريخ العالمي"⁽³⁾.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص 30. بتصرف.

(٢) وبخصوص تأثير الأدب المصري في الفكر اليوناني، كما يرى "بيت (Peet)" في محاضراته عن الأدب الشرقي القديم، في مصر، وفلسطين، وبلاد ما بين النهرين، أنّ الأدب المصري القديم هو في أساس الأدب اليوناني. فالإيونانيون طوروا الأدب المصري القديم إلى معنى الأدب كما نفهم نحن اليوم في العصر الحديث. .. فممّا لا شكّ فيه، أنّ هذا التأثير قد حصل؛ وذلك شيء طبيعي نتيجة لتواصل الثقافات البشرية، واحتكاك الشعوب بعضها ببعض؛ ولأنه لا يمكن أن نتصوّر نشأة الأدب اليوناني دفعة واحدة من غير مقدمات أو أسباب. " يبدو أنّ الأدب المصري القديم قد نما في العصور المتأخرة، وترك الفرصة لأمة عظيمة، وهي الأمة اليونانية، لكي تنهض به وتصل به إلى معنى الأدب الذي نفهمه في العصر الحديث.⁽¹⁾ (راجع بالتفصيل: مهدي فضل الله، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 44).

(2) نقلا عن: مهدي فضل الله، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 44.

وانظر على سبيل المثال: أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م، ص 5.

(3) المرجع نفسه، ص 45.

ولفهم الفكر الغربي فهما صحيحا ينبغي دراسة الفكر العالمي كله... يجب الاعتراف بأن تفكير الغرب لا يكتفي بنفسه، فتفسيره التاريخي يتطلب إعادة وضعه في وسط إنساني واسع النطاق، لأن التاريخ الصحيح هو وحده التاريخ العالمي⁽¹⁾.

وكما يقول المؤرخ والعالم "جورج سارتون (George Sarton): "إنّه لم يكن بالإمكان أن تحقق العبقريّة اليونانية معجزاتها العلمية بغير أصولها الشرقية. ومن فليس للغربيين استبعاد الأب والأم ، اللذين نشأت عنهما هذه العبقريّة. أمّا الأب فهو كناية عن التراث المصري القديم^(٢). وأمّا الأم فهي كناية عن ذخيرة بلاد ما بين النهرين: دجلة والفرات. " إنّ حديث الغربيين عن المعجزة اليونانية لا يعدو أن يكون اعترافا بجهلهم بحقيقتها وتسليما منهم بهذا الجهل... إنّ العلم اليوناني يقوم كلية على أسس من تراث الشرق، وبالغة ما بلغت العبقريّة اليونانية من عمق، فإن من المؤكد أنه ما كان يمكن أن تحقّق كشوفاتها العلمية المعجزة بغير هذه الأصول الشرقية⁽²⁾.

والواقع أنّ من أسباب انتشار الفلسفة في بلاد اليونان، ونبوغ اليونانيين في عالم الفلسفة، اتصالهم بالبلاد الشرقية وتأثرهم بالحضارات الشرقية. وإنّ، فليس صحيحا الادعاء بأن الحضارة اليونانية هي الحضارة الإنسانية الأولى، التي أمدّت العالم بالتفلسف الأول؛ وإنما قام قبلها حضارات عدة مختلفة في بلاد الشرق، مثل: مصر، والهند، والصين، وفارس، وبلاد ما بين النهرين... الخ.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص46.

(٢) على كل حال، لا تنفي صفة التفلسف الحقيقي عن اليونانيين، أو نشأة المذاهب الفلسفية الكبرى مع اليونانيين؛ إنما فقط، تلقي الضوء على أنّ كثيرا من الأفكار الفلسفية التي عالجها اليونانيون، كانت سائدة بصورة ما.. عند المشاركة ، وقد انتقلت آراء ومعتقدات هؤلاء الى بلاد اليونان، بطرق مختلفة، منها: الحروب، والتجارة، والرحلات.... الخ.

فمن الثابت برأي هذا الفريق ، أنّ فيثاغورس Pythagore قد ذهب الى مصر وبابل، وأنه قد استفاد الرياضيات من المصريين (وهذا هو رأي إيزوقراط اليوناني، أيضا) . وأنّ أرسطو زار مصر، واتصل بكهنتها، واستفاد منهم كثيرا، ولاسيما في حقل الرياضيات. وأنّ أفلاطون قد ارتحل الى مصر عدة مرات، وقد أمضى زمنا ليس بالقصير في عين شمس. ومن الطبيعي أن يكون قد اتصل بكهنتها، ولاحظ طقوسهم الدينية، واستفاد من معارفهم الفلكية وعاداتهم وتقاليدهم. وهو يذكر مصر كثيرا في كتابيه: الجمهورية والقوانين. يقول يوسف كرم: " قضى (أي أفلاطون) زمنا في عين شمس واتصل بمدرستها الكهنوتية ، وأخذ بنصيب من علم الفلك، ولا بد أن يكون قد استفاد أيضا بملاحظة الديانة والحكم والأخلاق والتقاليد، فإن من مؤلفاته الشواهد العديدة على ذلك" (نقلا عن: مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 47).

(2) المرجع نفسه، ص46.

وعندما قامت حضارة اليونان ، كانت هذه الحضارات ما زالت لامعة مزدهرة. ولعلّ هذا ما يفسّر قول "غوستاف لوبون" (G. Lobon) في كتابه : "الحضارات الأولى" (Les premierés Civilisations) : "ونحن نعلم اليوم أنه في العصر الذي لم يكن فيه اليونانيون إلّا جهلة وبرابرة، كانت هنالك حضارات لامعة زاهرة على ضفاف النيل وفي سهول كلديا" (1).

وإذا كان من الصعب، تحديد بدء تاريخ التفلسف الانساني، فالواقع أنّ التساؤل الفلسفي بصورة عامة، والسؤال عن "المادّات الكبرى" في تاريخ الفلسفة، بدأ مع نشوء التجمعات الإنسانية المنظمة، ومع قيام المجتمعات المدنية.

ولاشك في أنّ الفلسفة بدأت فطرية ساذجة، تستند الى الحس والظاهر، وراحت مع تطور الوعي، تحكّم العقل في كل مظاهر الوجود. وليس أدلّ على ذلك، من أسئلة الطفل أو "لمادّاته الفلسفية" ، التي توقع غالبا في الاحراج ؛ لم هذا ؟ ولم ذاك ؟ ومن خلّقي ؟ وكيف ؟ ولماذا خلّقت هكذا ؟ وليس على شاكلة أخرة ؟ وما هو الموت ؟ ومن هو الله ؟ الخ.

ويرى الفيلسوف الوجودي "كارل ياسبرز" (Karl Jaspers) في كتابه: "مدخل الى الفلسفة"، بأنّ التأمل الفلسفي ينبع من صميم الانسان، ويتفجّر من ذاته في احتكاكه مع الأشياء. ومن حيث هو كذلك، فهو شائع بين الناس أجمعين، أطفالا وكبارا، بدائيين ومتحضرين، حتى عند أولئك الذين اختلت موازين شخصياتهم، فاعتبرهم المجتمع مجانين. فالحقيقة تخرج أحيانا من أفواه المجانين، وكثيرا ما يكون الارتباط وثيقا بين العبقريّة والجنون. فليس بينهما كما يقال، إلّا قيد أنملة (2). وعليه؛ فقد اختلف المؤرّخون والباحثون في تاريخ الفلسفة، حول مكان نشأة الفلسفة، ووقفوا من هذه المسألة فريقين:

الفريق الأول: ردّ بدايات التفلسف الإنساني إلى أرض اليونان أو اليونانيين، واعتبره خلقا منهم (المعجزة اليونانية). ولكن أفرادهم لم يتفقوا على رأي واحد فيما يتعلق بنسبة التفلسف الأول الى شخص معيّن.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 50_51.

(2) المرجع نفسه،، ص 36.

فمنهم مثلاً، ك : برتراند رسل Russell; B، ردّ بدايات التفلسف إلى طاليس في المنتصف الأول من القرن السادس قبل الميلاد، الذي قال: "إنّ الوجود يتكوّن من جوهر أو عنصر واحد، هو: الماء. فكلّ شيء في الوجود، سواء كان على شكل سائل أو هيئة جماد ، يتكوّن من ذرات من الماء متفاوتة في الحجم والعدد.

ومنهم، مثل "سنتهليلير Saint ;Hilaire، من رأى أنّ التفلسف بمعناه الصحيح، قد بدأ مع المدارس اليونانية الثلاث المتعاصرة: الأيونية، والإيلية ، والفيثاغورية.

وكذلك، مثل "فكتور كوزان_V,Cousin، رأى أنّ أول فيلسوف بالمعنى الدقيق للكلمة، ليس طاليس، وإنما هو سقراط، الذي أنزل الحكمة أو الفلسفة من السماء إلى الأرض، والذي اشتهر بمقارنته للسفسطائيين⁽¹⁾، الذين كانوا يشكّون في قدرة الإنسان على الوصول الى الحقيقة، وأهمل البحث في الماورائيات أو الميتافيزيقا، ووجّه جلّ اهتمامه إلى الابحاث المتعلقة بالانسان.

لكن هذا الفريق غالى أتباعه في آرائهم، مغالاة دفعتهم الى اطلاق أحكام حاسمة، فأنكروا أية صلة للعالم الشرقي القديم بالحضارة والفلسفة، وزعموا أنّ التفلسف الإنساني، إنّما نشأ في أرض اليونان، ويعود إلى اليونانيين جملة وتفصيلاً. ولهذا فهم يقررون أنّ أية مناقشة علمية للظواهر الاجتماعية المختلفة، لم تعرف إلّا مع اليونانيين؛ وأنّ هؤلاء هم الذين خلقوا مبدأ الرقيّ الإنساني؛ وأنّ الحضارة الإنسانية المعاصرة أو الحضارة الغربية، ما هي إلّا امتداد لعبقريّة اليونانيين في العلم والفلسفة⁽²⁾. وأنّ بعض الشرقيين الذين نلحظ لديهم شيئاً من التفلسف، كالهنود مثلاً، استفادوا الفلسفة من اليونانيين وليس العكس. أي تلك الاستفادة نابعة من اهتمامهم بقضايا الإنسان الحياتية، منها : الشعور بالحرمان، واليأس والفقر وغيرها من المظاهر الاجتماعية التي لم تُعرّف على شكل قوانين إلّا مع اليونانيين الذين أنزلوا الفلسفة من السماء الى الأرض عن طريق الفيلسوف سقراط تلميذ المدرسة السفسطائية، والعبارة الشهيرة في ذلك: "اعرف نفسك بنفسك". وهي مقولة امتدّ صيتها على أنّها كانت الانطلاقة الفعلية للاهتمام بقضايا الإنسان في جانبها النظري والمعرفي.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 36_37 .

(2) المرجع نفسه، ص 37.

لكن من جهة أخرى؛ فقد كان اليونانيون في مراحل تفكيرهم الأولى مثلاً، يؤلهون مشاهير أبطالهم، وينسبون إليهم الخوارق، ممّا لا يصدق عقل. وكانوا يصدقون على آلهتهم كل الصفات البشرية الممقوتة، من شهوة، وظلم، وحقد حتى الافراط. وكان التفكير اليوناني الأول، تفكيراً ميثولوجياً خالصاً، تمثل في إلياذة هوميروس والأوديسة⁽¹⁾، وتأثر به كلّ الفلاسفة اليونانيين من أفلاطون الى أرسطو... الخ .

فـ "هوميروس (Homer)" كان يرى أن الطبيعة تشبه الكائن الحي المريد؛ وأنّ الآلهة تشبه البشر في صورتها، وأنّ سائلاً معيناً يجري في عروق الآلهة فيهبها الحياة الدائمة أو الخلود، وأن الأقيانوس " هو المصدر الأول لكلّ الأشياء في هذا العالم المادي.. الخ"⁽¹⁾.

وهذا يعتبر الرّد المناسب على اتباع المعجبين أو المنحازين لليونان، بل هم من تأثروا بالفكر الشرقي القديم في كلّ الحالات. لأنه لا يجوز في كل الأحوال شطب اسهامات كل حضارة إنسانية

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 39 .

(²) أما الفريق الآخر من المؤرخين والباحثين في تاريخ الفلسفة ونشأتها، مثل: شارل فارنر_Werner مؤلف كتاب الفلسفة اليونانية والفكر في الشرق القديم_La Philosophie Grecque، وغوستاف لوبون_G ; Lebon، مؤلف كتاب الحضارات الأولى_Les premieres Civilisations، وبول ماسون أورسيل_P ; M, Ourssel، مؤلف كتاب الفلسفة في الشرق_La Philosophie en Orient، وإميل برهيه_E ; Bréhier مؤلف كتاب تاريخ الفلسفة_Histoire de la Philosophie و هـ . ج. كريل مؤلف كتاب الفكر الصيني من كونفوشيوس إلى ماوتسي تونج... ومارسيل غرانه_Marcel Granet مؤلف كتاب الفكر الصيني، أيضاً ، و ج. فيليوزا_Filiozat ; J " صاحب كتاب فلاسفة الهند ... ولافاليه بوسان صاحب كتابي: " الأخلاق البوذية"، و" عقيدة بوذا وفلسفته"... و زنكر_Zenker صاحب كتاب: "تاريخ الفلسفة الصينية"، واشتيندورف_Stindorf صاحب كتاب " ديانة قدماء المصريين، وديلابورت_Delaporte صاحب كتاب بلاد ما بين النهرين: الحضارتان البابلية والآشورية " ، وجيمس هنري بريستيد_Breasted ، صاحب كتب: " انتصار الحضارة، فجر الضمير، تطور الفكر والدين في مصر القديمة، وتوملين_Tomlin " صاحب كتاب " فلاسفة الشرق الكبار، وغلاديش_Gladish وروث_Rothi الألمانين... الخ؛ فيردون نشأة الفلسفة وبدايات التفلسف الإنساني الى تراث الشرق القديم، أي إلى المصريين القدماء، والبابليين، والكلدانين، والصينيين، والهنود، والفرس... الخ.

وحجة هذا الفريق الذي ظهر الى الوجود منذ أواسط القرن الماضي فقط، هو أن الشعوب الشرقية القديمة، كانت قد سبقت اليونانيين القدماء الى ابتداء حضارات زاهرة، عرفت بعض العلوم العملية النافعة، وسادت فيها بعض الآراء الدينية السامية. فقد عرفت بلاد فارس مثلاً، الديانة الزرادشتية (القرن السادس ق.م)، القائمة على مبدأ الثنائية الإلهية.(راجع: مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 39).

بجرة قلم ، وإلا فإنَّ الحقيقة المترتبة عن وجودها تكون ملتبسة وغير مقنعة، خاصة إذا كان الانسان في كلِّ عصر ينشد الوصول الى المعارف كما هي أو على سبيل الموضوعية واليقين. وهذا يقودنا مرة أخرى للحديث عن تأثيرات الفكر الشرقي القديم في الحضارة اليونانية من جهة، ومن جهة أخرى اظهار مدى مساهمته في نشأة التفكير الفلسفي منذ بداياته الأولى.

وأول موقف نستأنس به على سبيل المثال؛ هو ما يراه " الباحث هوج " **Haug** ، بأنَّ زرادشت كان من الناحية اللاهوتية موحّدا، ومن الناحية الفلسفية ثنويا. أي: أنَّ إله الديانة الزرادشتية، هو إله واحد من ناحية العقيدة الدينية؛ أمّا من الناحية الفلسفية، فهو ينقسم الى ثنائية أو ثنوية روحية ومادية، وذلك لتفسير مظاهر الخير والشرّ المبثوثة في هذا العالم ⁽¹⁾.

كما عرفت بلاد الهند مذهب الحلول الصوفي الى جانب التناسخ، وذلك قبل فيثاغوس وأفلاطون بأمد طويل. ولعلّ هذين قد استفادا نظريتهما في التناسخ من بلاد الهند التي زارها أكثر من مرة. فأفلاطون يقول مثلا في كتابه: "الجمهورية"، وكذلك في كتابه: "طيماوس": "إنَّ النفس الآثمة من حيث الجبن والنذالة، تعود الى جسم امرأة؛ وإذا كانت آثامها سوء سلوك فتعود إلى أجسام طيور؛ وإذا كانت آثامها جهلا، فإنها تتقمص أجسام الحيات والأسماك، أو الديدان..."⁽¹⁾.

وهذا التوضيح ليس هو المبرر الوحيد لتأثير الفكر الهندي في الحضارة اليونانية التي خرجت منها العبقرية من عدم أو فراغ . وإنما حتى فكرة صراع الآلهة التي انتقدها سقراط من قبل ، تبين بشكل واضح انتقال تراث الشرق القديم الى عقيدة اليونان⁽²⁾.

لا يزال حتى اليوم، سرّا ولغزا يحير العلماء؛ ولم يتوصّل العلم الحديث الى الآن في مجاراتهم في هذا المجال. فمنذ آلاف السنين لا تزال المومياءات المختلفة، تحتفظ بصورها وأشكالها الأصلية المتنوعة، وتحافظ على هياكلها⁽³⁾. وما زالت هذه الآثار الماثلة أمام النواظر، في المتحف الوطني المصري، تدلّ بحزم على تقدّم المصريين القدامى في حقل العلوم المختلفة، ومن جملتها الكيمياء.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 40.

(2) المرجع نفسه، ص 41.

(3) المرجع نفسه، ص 41.

ولا ينبغي أن ننسى أو نتجاهل تفوق البابليين والكلدانيين القدامى في حقل الفلك، وتقسيمهم اليوم الى أربع وعشرين ساعة؛ وتنبؤهم الدقيق بكسوف الشمس وخسوف القمر، واستفادة اليونانيين لهذا العلم منهم⁽¹⁾.

وتجدر الإشارة هنا؛ الى بدايات التفلسف الانساني في الألوهية والبعث، والخير والشر، والمبدأ والمصير، والخلاص والسعادة ... الخ الى بلاد الشرق القديم، لا ينسى أن يشدد على الطابع العملي البحت للتفلسف الشرقي، إزاء التفلسف اليوناني الذي يهيمن عليه الطابع النظري العقلي الصرف، ويميزه عن سواه⁽²⁾.

من هنا جاءت المفارقة بين عقلية الشرقي هي عقلية عملية ناتجة عن الحاجة، في حين أن عقلية اليوناني هي عقلية علمية خالصة، مع التحفظ من التقليل من أهمية الفكر الشرقي الذي كان منطلقا لتفلسف العقل اليوناني في أصل الوجود ككل. وعليه يصدر الحكم بتأثير الشرق القديم على العقل الغربي دون اعترافه، والذي يريد البحث عن فرصة للانفصال عن ما أثاره الفكر الشرقي القديم من مسائل فلسفية سبقه بها بالدليل القاطع والممتنع عندما نقوم بالدراسة والتحليل لحضارة مصر القديمة كما سيأتي.

ويؤكد "جورج سارطون"، أن "من السذاجة القول ببدء العلم في اليونان، ويرى أن إهمال العلم الشرقي والإطار الذي نشأ فيه، سبب الأسد هذا العلم ومدى قيمته وجدته"، ويطلق سارتون على تقدم اليونان الرائع في ثلاثة قرون "معجزة" تثير الاعجاب والحيرة، ولو أنه يؤكد مرارا إنه متصل بما قبله، وحتى الفلسفة فيه هي زهرة لسلسلة طويلة من جهود ليست يونانية فحسب، فهي وكذلك الشعر الهومييري _ نهاية لا بداية⁽³⁾.

وحتى نكون منصفين بخصوص أصالة الفكر البشري قبل اليونان وبعدهم ، نقول " إنَّ فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنَّه ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال: إنَّه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم، فلم يعد مقبولا الرأي القائل بأصالة الفكر

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 42

(2) المرجع نفسه، ص 42.

(3) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص7.

اليوناني، وبأن من سبقهم لم يصلوا إلا إلى طور العلم العملي فقط، ويقوى من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من انجازات في مجال العلم والمجالات الأخرى، قبل اليونان بوقت طويل.

إنّ البحث الموضوعي الهادئ، يؤدي الى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبدّل كيمي في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارة اليونانية، إلا أنّه تبدّل حدث من تجمع كمّي، هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان⁽¹⁾. وربما كان هذا هو الرأي الراجح في حلّ مشكلة الانحياز لحضارة معينة عن غيرها، وكما أردنا أن نكون موضوعيين، فإنه يتعيّن علينا توضيح مكانة الفكر اليوناني في اخراج بعض الحقائق العلمية الى النور كي تستفيد منها البشرية جميعا بعدما كانت منحصرة في مجموعة مالكة للحكم والقرار في فترة من فترات، منها على سبيل المثال: ما كانت تخفيه الحضارة المصرية من نفائس العلوم، تمّ ترجمتها من طرف فلاسفة اليونان، لتصبح في متناول المتعلّمين، وهذه المبادرة تحسب للحضارة اليونانية .

ولم تنشأ الفلسفة بمعزل عن منجزات الإنسان العقيدية والعلمية والحضارية، ولا يمكننا أن نفهم تلك المنجزات، اذا لم نتابع الذخيرة الفلسفية للمجتمعات المختلفة، ألم يكن تاريخ الفلسفة_على رأي هيجل_ هو تعبير عن تاريخ العقل والوجود، ومنطقها هو القانون المثلث الذي يحكم تجليات العقل في عالم الطبيعة، فكانت النظم الاجتماعية والفنون، والأديان، والعلوم؟⁽²⁾

وإذا كانت الفلسفة لها هذا التأثير الضخم في حضارات البشرية، فإنّه لا يمكن فصل الفكر الفلسفي عن بيئته الحضارية والتاريخية، والفكر الفلسفي ما هو إلا حصيلة أفكار البشر خلال التطور التاريخي للإنسانية. ونشأة الفلسفة _بهذا المعنى_ صارت منذ عصور بعيدة مشكلة بين المشكلات التي تدرسها الفلسفة في محاولة للإجابة عن السؤال: أين نشأت ؟ أعند اليونان أم في بلاد الشرق القديم؟⁽³⁾

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص9.

(2) فريدريك هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، تر/ إمام عبد الفتاح إمام، ج1، القاهرة، 1974م، ص 161، 159.

() انظر أيضا : جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص15.

(3) جمال المرزوقي، المرجع نفسه ، ص16.

لكن ذلك لا يعني أنّ فلاسفة الشرق قد ركّزوا فلسفاتهم ومذاهبهم على مشكلات السلوك البشري والقيم الأخلاقية وحدها، فنحن نجد عند كثيرين منهم اهتماما بمشكلات ميتافيزيقية أساسية⁽¹⁾. من أجل ذلك يُنظر في الغرب، عادة، من خلال فلاسفة العالم الغربي التقليديين، ولكن ليست هناك ميزة خاصة في فهم طبيعة الفلسفة والمشكلات الفلسفية، أن ندرس فلاسفة تصادف أنهم عاشوا في نصف الكرة الغربي... إذا لم يكن مقتصرًا على فهم طبيعة النشاط الفلسفي، والاقتراب من مواقف فلسفية معينة فحسب، وإثما استخدام التراث الفلسفي كوسيلة لاستيعاب تلك الأفكار التي شكّلت الوضع الراهن للإنسان في نصف الكرة الغربي، ولكن هناك للسبب نفسه، ميزة في دراسة الفلاسفة الشرقيين، ذلك أنه بالإضافة إلى تعرّف المرء على طبيعة الفلسفة، فإنه يكتسب كذلك فهما للوضع الراهن للإنسان في الشرق⁽²⁾.

كذلك نريد نحن أن ننظر إلى خصائص الإنسان في الفكر الشرقي القديم وهو يتناول قضاياها وكيفية إيجاد البدائل لحلها في أبسط أمور حياته. بالطريقة نفسها التي ننظر فيها لقضايا الإنسان في الغرب، ومن ثمة نحكم على الانجازات بصفة عامة، ثم نقول هذا الإنسان في الغرب تأثر بآخر في الشرق أو العكس، ولا عيب في ذلك إذا كان هناك تبادل خبرات إنسانية يُستفاد منها في تلك الفترة أو بعدها. ونتيجة لكل ما تقدم نستطيع أن نقول: "إنّ فلاسفة اليونان ليسوا أول من بدأ الفلسفة والعلم والتجريد أو التنظير، فإنه وكما سبقَ ليس هناك وقت ولا مكان، يمكن أن يقال إنه فيهما أو معهما بدأ العلم والتفكير والتعميم. فلم يعد مقبولا الرأي القائل بأصالة الفكر اليوناني، بأنّ من سبقهم لم يصلوا إلّا إلى طور العلم العلمي فقط، ويقوي من عدم القبول هذا، ما قدمته حضارات الشرق القديمة من انجازات في مجال العلم والمحاولات الأخرى قبل اليونان بوقت طويل.

إن البحث الموضوعي الهادئ يؤدي إلى الاعتراف بوجود "قفزة" أو تبدل كيفي في مسار الحضارة البشرية، حصل مع مجيء الحضارة اليونانية، إلّا أنّه تبدّل حدث من تجمع كمي هو حصيلة ما كسبته البشرية من تقدم قبل اليونان⁽³⁾.

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص42.

(2) المرجع نفسه، ص44.

(3) المرجع نفسه، ص65.

الفصل الثاني

التفكير المصري القديم

الفصل الثاني: التفكير المصري القديم.

المبحث الأول: طبيعة الحضارة المصرية القديمة.

إنّ دراسة الفلسفة في الشرق القديم ضرورية لمعرفة كيف بدأت التجربة الفلسفية لدى أول الحضارات الانسانية متمثلة في حضارات الشرق القديم المختلفة، وكيف بدأ العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة في كل نواحي الوجود والحياة. إنها مغامرة العقل الإنساني الأول لاكتشاف طبيعة العالم الذي ظهر فيه هذا الإنسان⁽¹⁾.

فالمعجزة الحق هي ملك للحضارة الأولى التي أبدعت وأبدع بناتها على غير مثال سابق في كل المجالات وعلى رأسها مجال الفكر الفلسفي والعلمي. إنّ أول فكرة فلسفية وأول نظريات علمية وأول مخترعات بشرية في كل مجالات الحياة، هي بلا شكّ أول من بنى الحضارة، وأول من بنى مدنية. وأول من صنع مجتمعا سياسيا به السياسة والعلوم والفنون والآداب مثل ما به من عمران وزراعة وصناعات مختلفة. ولما كان من المعروف ومن الثابت أنّ كل ذلك يعود إلى الشرق القديم بداية من بناء الحضارة المصرية القديمة. فمصر والمصريون هم أصحاب المعجزة لأنهم أصحاب أول حضارة أنشأت نفسها بنفسها كما قال "ولسون" في كتابه عن الحضارة المصرية القديمة.⁽²⁾

إنّ التجربة الفكرية لدى كل البشر هي نفسها وتكرر في جوهرها، وإن اختلفت التفاصيل؛ فمن يقرأ تطور الفكر المصري القديم ويقارنه بتطور الفكر اليوناني القديم سيجد أن الفكر الفلسفي لدى اليونان رغم أنه نشأ متأثرا بالتجربة الفكرية الطويلة لدى المصريين القدامى، إلا أنه قد تطور بنفس الصورة التي وجدناها في مصر القديمة؛ فبدأ من التفكير في قضايا الوجود وأصل العالم الطبيعي إلى قضايا الانسان والأخلاق والسياسة.. الخ.⁽³⁾

فالفكر الشرقي لدى المصريين، كما كان لدى غيرهم من أمم الشرق القديم يتّسم ببعض الأغايز والغموض والتعبير عنه جاء بعبارات مكثفة وعميقة الدلالة دون تحليل أو توضيح للفكرة وفي أحيان كثيرة جاءت الفكرة أو المعتقد غير مصحوبة بأيّ دليل عقلي يثبت صحتها لدى قائلها. انهم كانوا

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص 11

(2) المرجع نفسه، ص 11

(3) المرجع نفسه، ص 9_10 من المقدمة

يختزلون التسلسل العقلي للأفكار ولا يعبرون عنها بصورة استدلالية حيث ينتقلون فيها _كما لدى اليونان_ من مقدمات الى نتائج بل كانوا يكتفون بتقديم النتيجة دون أن ينشغلوا أو دون أن يشغلون معهم بمقدمات هذه النتيجة التي عبّرت عن معتقدتهم الراسخ في هذا المجال الفكري أو ذاك.(1).

إنّ الفكر المصري القديم كان يرى بصورة لا تقبل المناقشة أن الصدق خير والقتل شرّ ، بينما كان الفيلسوف اليوناني يتساءل عن لماذا الصدق خير، والقتل شرّ حتى قال بعضهم أنه لا خير مطلق ولا شر مطلق ومن ثمّ فالصدق ليس خيرا دائما والقتل ليس شرا دائما، وانما ردوا تقييم الخير والشر الى حكم الانسان وفقا لمصلحته ووفقا لما ينفعه في المواقف المختلفة "(2).

ولكن هذه الأسباب الفلسفية كانت أسراراً مقصورة على الكهنة ولا يعلم العامة منها إلا إشاعات سطحية منسوجة تنتهي الى أن الآلهة تحل في بعض الحيوانات، ولهذا ينبئنا الأدب المصري القديم بأن تلك الحيوانات مشتملة على كثير من أسرار الكون الخفية، فهي مثلاً تعلم الغيب وتحيط بما في المستقبل الغامض على الإنسان، ولكنها تحتفظ بهذه الأسرار ولا تبوح بشيء منها إلا للمقربين الذين اصطفاهم الاله أو سيصطفاهم عما قريب"(3).

والحقيقة؛ فإنّ الحضارة المصرية القديمة، قد لعبت دوراً كبيراً في التاريخ الروحي للإنسان على مدى تاريخ البشر المتطاوّل، ما زالت تأثيراته بادية بوضوح أحياناً.. لا تخفى على عين المتخصص المتتبع لتاريخ الديانات المقارنة في طيات النظم الروحية والطقسية والعقائدية في حياة الإنسان المعاصر. وفي هذا يقول المؤرخ الإغريقي (هيرودوت-Herodotus): "إنّ المصريين أكثر تقوى من سائر البشر... ويهتمون كلّ الاهتمام بالشعائر المقدسة؛ فقد سبقوا شعوب العالم إلى إقامة الأعياد العامة والمواكل العظيمة، وعندهم تعلّم الإغريق، ودليل على ذلك أنها تقام في مصر منذ زمن بعيد، بينما لم يحتفل بها الإغريق منذ وقت قريب"(4).

(1) مصطفى حسن النشار، المرجع نفسه، ص 9_10 من المقدمة.

(2) المرجع نفسه، ص 9_10 من المقدمة.

(3) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، القاهرة ، 1938م، ص30.

(4) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة ، سنة 2001م، ص69.

ويضيف: " وكان للديانة المصرية القديمة واعتقاد المصريين في حياة أخرى عظيم الأثر في مدنيّتهم وعلومهم وفنونهم وآثارهم؛ فلولا معتقدات المصريين الدينية، لما رأينا المعابد والأهرامات والمقابر والتماثيل والتحنيط وروائع الفن"⁽¹⁾؛ وهي كلّها تراث مادي شاهد على البقاء لقرون.

والمصريون ذوو العقلية العملية لم يشغلوا أنفسهم بتأملات نظرية عن الخير المطلق الذي يمكن تطبيقه، وانتباعه تحت كلّ الظروف وبأيّ ثمن، ووجهة نظرهم في هذا الصدد كانت عملية محضة، فقد كان من المرغوب فيه عمل الخير، لأنّ ذلك سيعود بالنفع على الفرد فرضا الآلهة والبشر سيثمر عطاؤه طال ذلك أم قرب، وهو يحفظ للإنسان (اسما طيبا) بين معاصريه وبين أخلاقه، وسيحمى هذا الاسم من السقوط في زوايا النسيان أو من اللغة"⁽²⁾.

لذلك يكاد " يجتمع الباحثون على أنّ الديانة المصرية هي أولى الديانات البشرية التي ظهرت على وجه الأرض من غير استثناء. ويؤكد بعضهم تأكيدا قاطعا أنّه لم تظهر ديانة في الدنيا إلّا ولها في عقائد وادي النيل عنصر، وأنّ كلّ الديانات الإنسانية ليست إلّا فتاتا متساقطا حول مائدة بلاد الفراعنة "⁽³⁾. ومنها انطلقت الحضارات في مجارة انجازاتها كما سنكشف ذلك لاحقا.

وفي الحق؛ أنّ المصريين كانوا يعتقدون أنّ الروح تعود بعد الموت فتقطن في الموميا، وفي التمثال الحجري ..ثمّ تدرجوا الى أن للإنسان عدة شخصيات، بعضها مادي وبعضها روحي، وأن كلّ شخصية من هذه الشخصيات يمكن أن تستقل بنفسها في مأوى خاص...ثمّ فكّروا فهداهم تفكيرهم الى أنّ مأوى شخصيات الإله لا يصحّ أن تكون ميتة كالموميا ولا حجرا باردا كالتمثال، وإنّما يجب أن تكون مستحوذة على الحياة الواقعية وأن تكون غير إنسان، فأخذوا يحلّون الإله تارة في عجل وأخرى في تمساح، وثالثة في قط، ورابعة في طائر ثمّ يتبعون هذا الحلول بتقديس ذلك القط أو ذاك العجل أو هذا الطائر، ويقدمون الى هذه الحيوانات أنواع العبادة والاحلال لا على أنّها معبودات لهم، ولكن على أنّها ظروف قد حلّت فيها شخصيات الإله الأعظم التي لا تنتهى"⁽⁴⁾.

(1) جمال المرزوقي، المرجع نفسه ، ص69.

(2) المرجع نفسه، ص83.

(3) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص22.

(4) المرجع نفسه، ص29.

المبحث الثاني: نشأة العالم عند المصري القديم.

لقد حدث تطور في مفاهيم ومظاهر الديانة المصرية القديمة، بأشكالها الحيّة؛ الحيوانية والنباتية، أو المادية غير الحية، عندما أحرزت الحضارة المصرية درجة معينة من التمدن؛ وأفضى هذا التطور الى ازدياد القوى التجريدية لدى البشر، فأصبحت القيم المعنوية أعظم تأثيراً، وهي القيم التي تطورت مظاهرها في الإنسان أكثر من أية كائنات أخرى، فالمعبودات التي يُعزى إليها قدر جليل من المعرفة والقدرة، أصبحت تمثل في صورة إنسانية في النهاية، وعلى ذلك فإنّ وضع الآلهة في هذه الصور؛ هي علامة تحدد المرحلة الأخيرة لهذا التطور، وإن كانت هذه الصورة لم تشمل الآلهة كما لم تتأثر بها كل طبقات السكان بنفس القدرة⁽¹⁾.

إنّ القوى الطبيعية بأسرها، هي في المجتمعات القديمة، أجزاء صغيرة من القوة الإلهية العظمى، المنتشرة في الكون. وقبل خلق العالم، كانت هذه القوة الإلهية لا تزال غير فاعلية، ولكنها كانت متأهبة للفاعلية، وسط كتلة ضخمة، هي محيط أزلي، بلا حدود، وبلا ضياء، فهو خواء لا عضوي. ولما تجلّت هذه القوة للمرة الأولى، على هيئة انبثاق وضاء، خلقت بأساليب متنوعة السماء والأرض والآخرة في العالم السفلي، والجبال والتلال، والوديان، والصحاري، والأنهار، والبحار، والبشر والحيوان، والنبات، والأحجار، وكلّ ما لا يزال يشكّل عالماً الراهن، وفي بعض هذه العناصر يكمن جزء متناهي الصغر من الكيان الإلهي، يربطها بالقوة الأولية العظمى، وهكذا ولد سحر العالم⁽²⁾.

إنّ مثل هذا التخمين يحمل دلالة واضحة على وجود تأملات فلسفية حول طبيعة العالم بكلّ خصائصه في التفكير المصري القديم، وربما كانت البداية الفعلية للتفلسف حول نشأة الطبيعة المادية والبشرية. والحديث عن وجود قوى روحية ومعنوية، تعني اهتمام التأملات المصرية بثنائية الروح والمادة معاً؛ لأنّ الاعتقاد بوجود قوى إلهية تنظم الكون، وفيه عناصر متناهية ترتبط بقوى من الكيان الإلهي، هي فلسفة مادية في وصف عناصر العالم السفلي، وكيف بدأ عقل الإنسان التفكير في كيفية تفاعلها مع بعضها البعض، وكيف بدأ الاعتقاد بتقديسها، وتقديم القرابين لها كمعبودات.

(1) جمال المرزوقي، المرجع نفسه، ص74.

(2) المرجع نفسه، ص75.

أ/-مسألة الألوهية أو نظرية الخلق عند المصريين:

يدلّ الفكر الديني المصري القديم على صحة مبدأ التطور المعروف في علم الاجتماع الديني، الذي يبدأ بعبادة الماديات، ثم ينتقل الى عبادة الروحانيات؛ كما يبدأ بالإيمان بتعدّد الآلهة، ثم ينتقل الى الإيمان بفكرة الإله الواحد الأحد. فقد عبد المصريون القدامى، ببدء الأمر، مظاهر الطبيعة المادية المختلفة، مثل: الأنهار، والأشجار، والنباتات، والحيوانات...الخ. ورأوا فيها العلة في استمرار وجودهم، ثم تخلّوا عن ذلك الاعتقاد، وتلك العبادة بعدما رأوا أنّ هذه الآلهة التي تمثل مظاهر الطبيعة المادية المختلفة، لا تقدّم الإجابة عن تساؤلاتهم العديدة لما يجري في هذا الكون المترامي الأطراف، كالبرق، والرعد، والحياة، والموت، والكسوف، والخسوف، والظلم، والمرض...الخ. وعبدوا مظاهر الكون الطبيعية، مثل: الكواكب، والنجوم التي رأوا فيها السبب الحقيقي لوجودهم، ولكل ما يطرأ عليهم وعلى هذا الكون⁽¹⁾.

لقد " آمن المصريون بالثالوث الإلهي، وبالتزاوج بين الآلهة، فعرفوا عقيدة التثليث الإلهي، التي تتألف من: أب، وأم، وابن، اختلفت أسماؤهم باختلاف الممالك والمدن المصرية. ففي أبيدوس (عبيدوس)، كان الثالوث الإلهي يتكون من: أوزيريس (Osiris) الزوج، إيزيس (Isis) الزوجة، وحوروس (Horus) الابن. وأوزيريس الذي يأخذ اسم: تموز وأدونيس في لبنان، وسوريا وفلسطين، هو إله الخير والعطاء والتجدد المستمر؛ لأنه إله الماء والزراعة والقوت، وبدونه لا سبيل الى الحياة على الأرض؛ لأنه القوة التي تمدّ الناس بالحياة... وإيزيس (رمز القمر) هي الزوجة الوفية التي تملك قوة سحرية تمكّنها من احلال العدالة، وهذا ما مكّنها من اعادة الحياة الى زوجها أوزيريس بعد أن قتله أخاه "ست" إله الشرّ، فأصبح من الخالدين⁽²⁾. ولسنا ندري كيف وقع هذا التحوّل في العبادة من عقيدة عبادة مظاهر الطبيعة الى عبادة الإنسان للإنسان، في مشهد لا يمكن تحديد بداياته.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 68.

(+) وتجدر الاشارة الى أنّ أوزيريس، وإيزيس، وست، ونفّس، كانوا إخوة وأبناء لإله الأرض: جب، وإلهة السماء: توت. وأنّ جب وتوت، كانا أخوين، وابنين لإله الهواء أو الجو: شو وزوجته: نفّس.... كذلك تجدر الاشارة الى أنّ العائلة الفرعونية الحاكمة ، بلغت مصاف الألوهية لقرون عديدة تخللتها انقلابات ثم انقطاعات ، ثم عادت اليها السلطة الدينية لا مجال لذكرها، لأن الشرح فيها يطول.

(2) المرجع نفسه، ص 69.

والحقيقة فإنّ " صفة الإله عند المصريين هو "أصل الحياة الذي لا يعتريه فناء. وهو يتمظهر في الوجود بكافة مظاهره وصوره المختلفة. عن طريق الخلق المستمر لهذا الوجود، دون أن يؤدي إلى اتحاده مع هذا الكون المترامي الأطراف.... وإذا تساءلنا عن عملية الخلق، أيّ خلق الوجود بحد ذاته؟ فإننا نقول: إنّ جميع الأشياء أو الموجودات كانت في الأصل في قلب الإله، وذلك على شكل تصوّره؛ ولم يكن القلب عند المصريين يعني شيئاً سوى العقل أو الذهن أو الفكر" (1).

والمعنى المطلوب من هذه الفكرة الأخيرة، تطرح عدة تساؤلات : إذا كانت صفة الإله تعني أصل الحياة الذي لا ينتهي، فلماذا تعددت الآلهة عند المصريين القدامى؟ وإذا كانت نظرية الخلق عندهم تعتمد على أصل الموجودات من قلب إله واحد، فلماذا حصلت عملية الانتقال من فرعون حيّ الى إله ميت يشاركه في ذلك عدة آلهة ؟

لقد كان المصريون في عصور ما قبل التاريخ يعبدون آلهة كثيرين أي كان لكل جهة إلهها الخاص الذي تصوّره كما شاءت لها عقليتها وتقدم اليه من القرابين ما تستطيع تقديمه اليه. وفي وقت من الأوقات أحس أحد حكام مده الوجه البحري، ولعله حاكم مدينة "ليتو بوليس" بقوة ممكنة من تعميم إلهه "هوروس" وفرض عبادته على جميع مدن القطر وقد فعل ، فطغى " هوروس" هذا على كثير من المعبودات وبسط سلطانه على الجميع.. وإذ ذاك لم يسع الكهنة إلا أن يبرروا عمل السياسة كما هو شأنهم في كل حين فزعموا أن الآلهة الأخرى التي أدواها "هوروس" ليست إلا أبناءه" (2).

والجدير بالذكر، أنّه كان لنظرية: أنّ فرعون إله، أو ابن إله، أثر كبير في توحيد بلاد النيل، وفي تنظيم شؤون الدولة في كافة النواحي السياسية والإدارية؛ وذلك لأنّها لعبت دورا بارزا من الناحية النفسية، في تقبّل الناس للقواعد والقوانين الفرعونية الموضوعة لتسيير شؤون الدولة" (3). والشرح الكافي لهذه الوضعية؛ قد اقتصر على مرحلة معينة من الحياة الدينية في مصر القديمة؛ بحيث تروي الروايات عن تحوّل كبير من عبادة للفرعون، الى عبادة هذا الفرعون نفسه لئلاّ الواحد في

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص :76.بتصرف.

(2) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص33.

(3) مهدي فضل الله، المرجع نفسه، ص110.

زمن **أمنحوتب الرابع** (زمن النبي يوسف عليه السلام). أي ظهور عبادة التوحيد في فترة تعدد الآلهة. وتزواج الآلهة ، وغيرها من العبادات التي توضح مدى تعلق المجتمع المصري القديم بظاهرة التدين والتقديس الذي لا حدود له. بل كان هذا المجتمع الأكثر تدينًا عبر فترات طويلة، أو لقرون عديدة. إن هؤلاء القوم الذين عاشوا منذ أربعة آلاف وخمسمائة سنة أو خمسة آلاف سنة، يؤكّدون مرار وتكرارًا برءهم من عمل السوء. " لم أرتكب أبدًا أي شيء سيئ نحو أي شخص ". هكذا يقول كبير أطباء الملك **ساحورع** في منتصف القرن الثامن والعشرين ق.م . بينما يقول كاهن، بعد ذلك بزمن وجيز نفس الشيء في مضمونه: " لم أرتكب أبدًا أي عمل من أعمال العنف نحو أي شخص "(1). ونطالع خطابا ، وضعه مواطن عادي ، فوق واجهة قبره، يقول موجها حديثه الى الأحياء : "أيها الأحياء الذين يمرون بهذا القبر، كنت شخصا يحبه الشعب، ما أخذت أبدًا ملك أي إنسان عنوة، لقد كنت أصنع ما كان يسر به كل الناس "(2).

وبطبيعة الحال؛ فهذه الاعترافات يلقتها الطبيب أو الكاهن للمواطن العادي قبل رحيله عن الدنيا، مما يدل على إيمان هذا المواطن المصري بيوم البعث، وبوجود المحكمة الإلهية. وتقديراته بمدى استعداداته للمحاكمة على أنه مواطن صالح يستحق الرحمة والشفقة. ولعلّ المصريين هم أول من اعتقد بحياة أخرى فيها الثواب والعقاب بعد الموت. وكان اعتقادهم، بادئ الأمر منذ حوالي خمسة آلاف سنة (ق.م)، يقوم على أنّ الراحلين من هذه الدنيا (الموتى)، يحيون في القبر أو على مقربة منه. وعلى ذلك، كان لزاما عليهم، أن يعدّوا العدة لتهيئة أسباب الحياة للميت في الآخرة"(1). ولعلّ هذا ما يفسّر بناء أهرامات الجيزة العظيمة، من قبل الملوك الفراعنة، لحفظ أجسامهم المحنّطة، كموميئات في حجرة صغيرة داخل قبر تحت بناء عظيم من الحجر. هذا ؛ وقد استمر الاعتقاد بأنّ الموتى يبقون في القبور -على الأقل بأجسادهم- لفترة طويلة، حتى بعد ظهور الآراء التي تتحدث عن آخرة مباركة في مكان آخر، في منطقة قصية من السماء، بعيدا عن الجسد الموسّد في القبر"(3).

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص115.

(2) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(3) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص :84

المبحث الثالث : الإنسان في مصر القديمة.

أ- النفس الانسانية :

الانسان طبقا للتصور المصري القديم، يتكوّن من الجسم المادي المرئي، والعقل اللامادي اللامرئي ومقره القلب أو البطن... وكان يرمز الى شكل طائر: له رأس إنسان، أما ذراعه فعلى هيئة جناحين محلّقين. وعند الموت، كان الكاهن الجنائزي يقف وسط أقارب ومعارف المتوفّي الذين اجتمعوا على مقربة من القبر المشيّد بالحجر، لكي يقوم بتلاوة بعض التراتيل الدينية، ويؤدي بعض الشعائر الخاصة، التي تساعد الميت عند وقوفه يوم الحساب في حضرة الإله الأكبر على تجاوز محنته، كتلاوة فصل منع قلب الميت من الوقوف ضده في العالم السفلي من كتاب الموتى، طالبا من الإله أن يرأف بالميت ويدخله ملكوته، واضعا في الثابوت⁽¹⁾.

وهو كذلك؛ تحيط به مظاهر الطبيعة ، ويتوقّف عليها ذاته قد تصوّر حوله قوى إلهية تقطن العناصر الكونية، وعلى رأسها الأرض والسماء والأثير وفيضان النيل فضلا عن الشمس والقمر؛ فهذه القوى التي تجسّدت في هيئات بشرية بلورت العديد من الآلهة الكونية ذات الأهمية العامة للجميع، للدرجة التي لم تعد هذه الآلهة ترتبط في أصولها بأيّ إقليم أو مدينة في البلاد، فهي بوجودها في كل مكان لم يكن ثمة حاجة بسكل منظم لعقيدة لها أو معبد محلي محدّد بعينه⁽²⁾...

كما كان المصري إنسانا شديد التقوى، فنظم الأناشيد معبّرا للآلهة في صورة شعرية، عن امتنانه وعبادته، وسوف يترك هذا الشعر المقدّس الغزير، أثرا مؤكّدا على الآداب اللاحقة الكلاسيكية القديمة واليهودية والمسيحية⁽³⁾. كما سيظهر الأثر العميق في الحضارات اللاحقة من الناحية الثقافية والفنية والدينية والاجتماعية والسياسية، ولا أدلّ على ذلك الاحتكاك المتبادل بينها وبين الحضارات المجاورة من خلال الرحلات العلمية والتجارية التي ساهمت بطريقة فعّالة في نقل الخبرات ومختلف الصنائع، ونتج عنها التأثير بقوة، وبإيجابية على حياة المجتمعات بالأخص، من حيث الآداب العامة.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 85 .

(2) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص 76.

(3) المرجع نفسه، ص 76.

ويبدو في مفهوم المصري القديم؛ أنّ مصائر البشر أو أقدارهم ليست حتماً يستحيل تجنبها، فالإنسان قادر على تغيير قدره من خلال أفعاله إذا أراد الإله له ذلك، وطالما أنّ الغد دائماً "يقع بين أيدي الإله"؛ فالطفل يولد مصحوباً بالعناية الإلهية، والوالدان يوطدان صلاتهما بالآلهة، فتأمر بأن يولد الطفل لهما، ومنذئذ فإنّ الإنسان يمارس أماله فقط من خلال رضى الآلهة وموافقتها، فالبشر يقترحون الأفعال، أمّا الإله فيفرضها، أو كما عبّر عن ذلك أحد حكماء المصريين: "الإنسان ينطق بالكلمة أمّا الأمر فللرب" ⁽¹⁾. وهذا ما يمثل الطاعة والخضوع المطلق للارادة الإلهية بكلّ ثقة.

ومع ذلك فالإنسان نفسه مسؤول تماماً عن أثر أفعاله، لأنّ المصريين على الرغم من إيمانهم بالقدر فإنهم لم يخلصوا الى أنّ القدر يمكن أن يعرقل الإرادة الحرة للإنسان، فالقدر يتبدّى في مختلف الأحداث في العالم المحيط، والتي تؤثر على حياة الإنسان من الخارج، والإنسان تظلّ لديه الفرصة لكي يناضل ويواجه هذا التأثير لجهد الخاص ⁽²⁾. ومن هنا كان الاهتمام بالارادة الحرة للإنسان عند المصريين القدامى، سابقة عن اهتمام التفكير الصيني والهندي، بحيث كانت الانطلاقة الفعلية للعناية بالإنسان قبل إشاعة العبارة السفسطائية الشهيرة: "الإنسان مقياس الأشياء كلّها"؛ أو مقولة سقراط: "اعرف نفسك بنفسك".

وأبناء مصر القديمة شأنهم شأن من جابه معضلات الحياة بثقة عالية بالنفس، فأطلقوا طاقاتهم العقلية والمادية من أجل بناء صرح حضارة مزدهرة، لذلك اهتموا أول ما اهتموا بالواقع الحيوي، ومنحوا للجغرافيا قدراً من الاهتمام في عقائدهم، فتحدثوا عن أثر الشمس على الحياة، فالناس يحيون، لأنّ الشمس تشرق عليهم، مع أنّهم (في بداية الأمر) لم يتركوا لقوة (الهواء) -الريح- في عقائدهم، إلّا موقعا ثانوياً، لكنهم في المقابل؛ منحوا (النيل - الماء) موقعا هاما في نظام الأشياء، فكانت له دورة (ميلاد) وموت (سنوية)، وذلك لصلة الحياة بالماء ⁽³⁾.

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص 80

(2) المرجع نفسه، ص 82.

(3) المرجع نفسه، ص 163_164.

وكما لا يخفى علينا؛ فإنّ الإنسان في مصر القديمة كان منشغلا بقضايا مجتمعه، مثل فساد الأخلاق، فقد عانى منها، وحاول حلّ مشكلاته؛ لأنّه يعتبر نفسه فرد من المجتمع، وجزء من الدولة أو الحكومة، لذلك ظهرت هناك حركات إصلاحية يقودها حكماء مثل أوبور، وهو يروي لنا الأحداث السياسية الواقعة في تلك الفترة، ويتأمّل في مجرياتها، فكلّ حضارة مشكلاتها العارضة، وهي حلقة من حلقات الحضارة البشرية المترامية الأطراف عبر الزمان والمكان⁽¹⁾.

يمكن أن نعتبر تلك الحركات الإصلاحية الرامية لحلّ المشكلات الاجتماعية، بمثابة المواطنة التي كان يتمتع بها الفرد المصري، وهو يؤدي الطاعة والخضوع للواجب، وبالمقابل يطالب بحقه في العيش بكرامة، وأنّ مبتغاه أن يموت مواطنا طيبًا وصالحا، كما يريد أن يصفوه بين الأفراد. وربّما كان الشعور بالانتماء الى الحضارة الفرعونية من باب التعبير عن التمايز (الرجل الممتاز)، فكلّ مواطن له الحق في اختيار المعتقد الذي يريده، لذلك نجد ظاهرة التقديس بادية على سلوكياتهم العادية، يمكن أن نجعلها فيما يلي ، ونقول:

1/- إنّ المصريين القدماء كانوا يعتقدون أنّ عنصرهم هو السّماء، فلا يمكن أن ينتسبوا الى الإنسان العادي فضلا عن الحيوان.

2/- إنهم صرحوا في عدة مواضع من آثارهم بأسباب تقديسهم لتلك الحيوانات، ولا يمت أي واحد من هذه الأسباب بصلة الى تسلسلهم من الحيوان. وإذا، فلا يمكن أن نسّمّي تقديس المصريين للحيوان "توتيميسم"، إلّا إذا خرجنا بهذه الكلمة عن معناها الأصلي، وجعلناها مرادفة للتقديس فحسب بدل مرادفتها للتقديس الناشئ عن البنوة أو القرابة⁽²⁾.

وهذه الحالة؛ قد نجدها عند كلّ حضارة أصبحت ظاهرة على الحضارات المجاورة لها من باب التنافس والتفاخر والتمجيد، للعرق أو النسب، فمنهم من يهتف بشعب الله المختار، ومنهم من يعبر بالقوة، ومنهم من يفتخر بالمال، ومنهم كذلك من يفتخر بتشديد المباني والصروح، بينما المصريين القدامى، اجتمعت فيهم كلّ مظاهر التقديس، حتى أنّهم ينتسبون الى الإله، أصل حياتهم ووجودهم.

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص 130

(2) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص 27

ولقد أدرك المصري القديم، أنّ الآلهة خلقت الإنسان على صورتها، ولمصلحته، مركّبا من (جسد) و(روح)، الأول-الجسد- مادي، والثاني-الروح- لامادي، ويفارقه الروح بالموت، ويعود إليه بعده لوجود حياة ثانية، هي مستفقر الانسان؛ لذلك أصبح الموت لدى المصري بداية حياة جديدة أبدية، وهي القاعدة التي استند اليها سقراط اليوناني فيما بعد، لكي يبرّر تناوله للسّم⁽¹⁾. معتقدا بذلك الخلود الذي يمجّده في الحياة الدنيا، ويكون قدوة للناس في الثبات على المبادئ الخلقية، ومحتسبا بأن تحفظه العناية الإلهية من الفناء الى الأبد. وبطبيعة الحال كان لقرار سقراط الأخير الأثر الكبير على النفس البشرية في امثالها للقانون الأخلاقي. وظهر ما يعرف بقانون الحق والواجب الذي انطلق من الفلسفة اليونانية، وامتد لباقي المجتمعات التي تدين لأفكار سقراط الأخلاقية، ومؤكّدا لمعتقدات الإنسان المصري القديم الملهم لتلك الرؤيا الأخلاقية التي تمجّد الروح، وتعتني بالجسد المساعد على الطاعة والعبادة.

وعليه؛ فالإنسان الفاضل-في رأي المصري القديم- لا يمحوه الموت، بل يُحظى بالخلود، بسبب طيب ذكراه..... ممّا جسّد الحل التناسخي في عالم الأرواح المصري، المرتكز على رؤيا أخلاقية، تحثّ الإنسان -تجنّبا للعقاب- أن يكون من ذوي الأفعال الحسنة المطيعة، لكي لا تحبس روحه في حيوان، فلا ترتقي الى عالم السّماء، إنّها ذات الفكرة التي شرقت وغربت، فظهرت في الهند، كما كان لها صدى في اليونان⁽²⁾ مع الحكيم سقراط الذي ضحى بروحه مقابل المبادئ الأخلاقية السّامية ، وكان بإمكانه الهروب أو الاستسلام؛ لكنه فضّل الموت بارتياح عميق، أي لدوافع أخلاقية؛ "جاءت فكرة "الحياة الثانية"؛ يقصد من ورائها تهذيب سلوك الإنسان، لأنّ الفعل السيّئ لا يمرّ دون حساب"⁽³⁾. فهناك عدالة إلهية قبل أن توجد عدالة اجتماعية بين الناس، من شأنها أن تنظّم سلوك الإنسان داخل أي مجتمع، وإن اختلف الزمان والمكان، لذلك كانت العدالة الاجتماعية النابعة من الامتثال للقانون الأخلاقي مطلب الجميع، وإن تغيّرت الأحوال.

(1) كريمة، " أساطير العالم القديم"، تر/ أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة، 1974م، ص40-43.. نقلا عن : جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص177.

(2) المرجع نفسه، ص177.

(3) المرجع نفسه، ص177.

وعلى ما يبدو؛ فإنّ النفس المصرية القديمة، لها ميزة عظيمة، ولها تأثيرها في الحياة العامة للمجتمعات القديمة، وحتى المعاصرة منها؛ إذ لا تزال بعض المعتقدات الغربية، كالاعتقاد بعودة الروح بعد الموت للجسد، في مدة 40 يوما، لتتقّد المكان الذي فارقتة. ومع طول المدة على هذه الفكرة الأسطورية، نقول بأنّ فاعلية التأثير للتفكير المصري القديم على الحضارات المجاورة كان أكثر تأثيرا، إذا قارناها بوصولها إلينا ، واعتقادها بشدة رغم اندثار التراث الفرعوني العظيم.

ب/- الأخلاق عند المصريين القدامى:

لقد شيّد المصريون صرحا من المدنية المادية، يظهر أنّ الزمن يعجز عن محوه محو تاما(الاعتماد على الوسائل المادية لتأمين الخلود الأبدي لفرعون، وقهر الزمن، ورفض الموت). أما الأخلاق فهي وجه آخر من الحياة، الذي لا يدرك باللمس، وإن كان الصرح المدني الذي ابتناه المصريون يدلّ عليها من خلال الآثار المحفورة أو المنقوشة عليه⁽¹⁾.

وقد أسهم المصريون في الفكر الاجتماعي الأخلاقي، بتلك التعاليم العملية الواقعية، التي وردت على ألسنة كهنتهم وحكمائهم، مثل تعاليم: **بتاح حتب**(فتاح حوتب) 2500 ق.م، وتعاليم كاجمني، وتعاليم **أمنحصب** (أمنحست) 1300 ق.م، وتعاليم ميركاري في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد. وقد دلّت الدراسات المقارنة التي قام بها بعض الباحثين، على وجود تأثير للنظم الأخلاقية المصرية على الأفكار الدينية...⁽²⁾.

والاخلاق المصرية تتمثل، بمجموعة القواعد العملية، التي تعبّر عن الواقع الانساني وتلحظه بصورة تفصيلية، بحيث ان العامل بها يضمن لنفسه حياة مليئة بالسلامة والسعادة. وعلى هذا ، فإذا كان الحديث عن الأخلاق يعني الحديث عن المثل العليا ، كما هو الحال عند أفلاطون مثلاً، فالواقع أنّ المصريين لم يخوضوا في ذلك خوض افلاطون؛ وإنما استندوا الى المثل العليا، كالعدالة، والحق، والخير، والاستقامة، والجمال، والقبح...الخ، كمسلمات بديهية للحديث عن الجزئيات، أي عن العادل والظالم ، والخير ، والشرير ، والمستقيم والفاقد، والفقير ، والجميل والقبيح...الخ⁽³⁾.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 97.

(2) المرجع نفسه، ص 97.

(3) المرجع نفسه، ص 98 .

إذن؛ فالحياة المصرية، كانت أخلاق عملية،، يعيشها الإنسان ويتشبّث بالآداب الحميدة حتى لحظة وفاته، وانتظار محاسبته بعد البعث من الموت. وهذه السلوكات الأخلاقية يتهياً بها، لكي يكون محبوباً بين الناس وبعد موته؛ وهنا يكمن الفرق بين الأخلاق المصرية، والتي دعا إليها أفلاطون حتى يكون المرء سعيداً فقط.

ومن مجموعات القواعد والنصائح الخلقية العملية المصرية، مجموعة الحكيم المفكر آني، التي كتبها إلى ابنه خنس حوتب، وفيها يوصيه بالصمت، وعدم تناول الآخرين بالنقد؛ لأنّ السلامة والسعادة كثيراً ما تكونان بصمت اللسان؛ ولأنّ كلمة خاطئة يتقوه بها اللسان، قد يكون فيها هلاك الإنسان؛ وباحترام الآخرين ولاسيما المتقدمين في السنّ؛ وبمساعدة الفقراء والمحتاجين، لأنّ النعمة لا تدوم، ولأنّ الموت هو نهاية المطاف، وصاحب القلب القاسي لن ينال عطف الإله في الآخرة. " كن صامتا لتكون سعيدا ". ولا تقضي بما في قلبك لرجل، فإنّ كلمة خاطئة تخرج من فمك، إذا أذاعها من سمعها، قد يكون فيها هلاكك. ولا تكن ممّن يحبّون الخوض في الحديث عن الناس. ولا تقل من الكلام إلّا الطيب"⁽¹⁾. ففيه يتشكّل الخلق الحسن، والحياة الفاضلة.

وكان التواضع في مجال المعرفة من أهم الفضائل الخلقية عند المصريين القدامى؛ وكذلك واجب اتباع طريق الحق والخير، لأنّ الخير حق دائم؛ وتجنّب طريق الشر، لأن الشر عارض زائل لا يدوم، وإن عاد بالفائدة أو الثراء العابر على صاحبه. " لا تزه بمعارفك، ولا تحسبن نفسك عالما. خذ نصيحة الجاهل قبل المتعلّم، لأن حدود العلم لا نهائية . الصدق خير جزاؤه دائم". وقد تجني من وراء الشر ثراء، ولكنّه لا يدوم كما يدوم الخير. طوبى لرجل يجعل الحق رايته، ويسير وراءها دائما"⁽²⁾.

وعلاوة على هذا، فإنّ الانسان يجب عليه-على الدوام- أن يظهر بوجه بشوش لأنه كما يقول حكيمنا- " لا فائدة من النواح على اللبن المراق"، وفي النهاية، فإنّ النعمة السائدة هي جد خلقي مسيطر يشيع في كل فلسفة حكمة الوزير العجوز المألوفة، وأعظم أمر ظهورا فيها كلها، هو " اعمل

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 99.

(2) المرجع نفسه، ص 101.

الصواب"، " وعامل الكل بالعدل "(1). وهذه الحكم تشبه تماما حكم الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط (E ; Kant)(1724-1804م) الذي يناهز بالقول : " عامل الناس كما تحب أن يعاملوك". لذلك فالقانون الأخلاقي متجذر في نفس الإنسان الطيب والخلق، والمحبوب بين الناس.

و من حكم بتاح حوتب المصري القديم حول سلوك الإنسان وتصرفاته لا تتقطع ولا تنفى منها قوله: "الأحمق الذي لا ينصت، لن يستطيع أن يفعل شيئا، لأن المعرفة والجهل في نظره متساويان، وما هو مفيد مماثل لما هو ضار. إنه يأتي كل ما يدينه الناس من أفعال، حتى أنه يتعرض للوم يوميا بسبب ذلك"(2). وهذه الصفة موجودة في النفس البشرية ، لا تندثر ولا تختفي مع مرور الزمن، ومن النوادر حكى الحكماء الكثير من مواقفهم؛ ذلك بأن صفة حماقة ترافق الجهل بالقواعد الأخلاقية ، بل يناهزها. فجد الأحمق في كل زمن أفعاله مخالفة لكل التوقعات ينفر منها الناس. فتكون شخصية الأحمق تحت نظر السخرية .

ثم يصف هذا الحكيم المصري حياة الأحمق من خلال تصرفاته، فيقول: "إنه يعيش على ما يميته الناس(في المعتاد)، فغذاؤه هو الكلام الآثم"، وطبعه يعرفه العظماء الذين يقولون: "حيات(ه) تدمر كل يوم"، ويمر الناس مرّ الكرام على أخطائه، بسبب كثرة المأس التي تنهال عليه يوميا"(3). وهكذا يمكن أن نشهد تحولا عظيما في الوعي الأخلاقي عند المصري القديم، إن التشاؤم...التي كانت تراود بعضهم قوبلا بتيار مضاد متواصل من الاستقامة والعدالة الاجتماعية، كانت له السيادة، وعرضته فلسفة المفكرين الاجتماعيين الأكثر تفاؤلا التي يشيع فيها الرجاء"(7).

والمعنى المقصود من فلسفة الحياة الأخلاقية للمواطن المصري، كانت بعيد نوعا ما عن التشاؤم وخيبة الأمل في الحياة، وإنما كان أكثر الناس تفاؤلا بحياة الاستقامة التي تجعله يحيا الحياة في راحة، وحياة رحمة بعد الموت، أو البعث الذي يواصل فيه مشاعر الطمأنينة بجوار رب رحيم. لذلك جمع المواطن المصري بين الدين والأخلاق في حياة متوازنة بعيدة عن الاضطرابات باختلافها .

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص137_138.

(2) المرجع نفسه، ص386.

(3) المرجع نفسه، ص138.

ج/- العلم والمعرفة عند المصريين القدامى:

أما عن حجم التقدّم العلمي والتقني، فكتب كل من النمساويين (بيتر كراسا، وراينهارت هابيك) في كتاب نشر لهما في ألمانيا يحمل عنوانا عن "الكهربائية في مصر القديمة"؛ أگدا فيه معرفة المصريين القدماء القوانين التي أوصلتهم الى معرفة الكهرباء، والاستفادة منها في الإنارة ، وذلك في سياق حديثهم عن البطارية الكهربائية التي وجد أحد العلماء جداريتها في معبد "دندرا" في وادي الملوك، والتي تحمل تخطيطا لمصباح (مشكاة كهربائية)، مع كامل النظام الهندسي مع المشكاة، مثل: السلك والقوة، وجهاز تنظيم درجة الضوء، يستخدمونها في قصورهم ومعابدهم وأهراماتهم، والطريف في الأمر أنّ مهندسا نمساويا نجح في صناعة نموذج مشابه لذلك الذي اكتشف في المعبد، وبهذا جاء إنجاز هذا المهندس ترجمة للأثر المصري القديم⁽¹⁾.

أما الطبّ، فوصل ذروته في التشريح والتحنيط ، مع ما رافق هذا التقدّم من ازدهار في المنجزات الكيميائية ، وعمليات معقدة تنطق بها " مومياءات" متحف القاهرة التي تبقى شاهدة على تقدم هذه العلوم على مرّ العصور والدهور⁽²⁾.

ومن الآثار العميقة لتفكير الحضارة المصرية القديمة في باقي الحضارات الأخرى المجاورة واللاحقة، تجلّت في المنجزات العلمية التي قاومت الدهر؛ وشهد لها العلماء والمختصون عبر العصور. فنحن " نجد أنفسنا إزاء منجزات عبقرية، رائعة ودقيقة، حقّقها العقل المصري، أجبرت اليونانيين على الاعتراف بأسبقية العلوم المصرية عليهم، ولا سيما الرياضية منها، على الرغم من أنهم قوم قليلو الاعتراف بمصدر معارفهم، ومع ذلك أشار هيرودوت وأفلاطون الى هذه الحقيقة"⁽³⁾. فكان أبناء وادي النيل بحق عمالقة في الهندسة، وما زالت الأهرامات ، والمعابد والقصور

(1)راجع: وصف سراج توت عنخ آمون في "موجز وصف الآثار المصرية"، لدائرة الآثار المصرية، القاهرة، 1969م، ص229، نقلا عن : علي حسين الجابري؛ الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، العراق، 1985م، ص115.

(2)موجز في وصف الآثار المصرية ، ص79- 80 و 152-202. نقلا عن : جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص165.

(3)راجع: د.سامي جبره: "في رحاب المعبود توت"،رسول العلم والمعرفة،تر/عبد العاطي جلال، القاهرة، 1974م، ص163. وأيضا: د/ياسين خليل، " التراث العلمي العربي"، بغداد ،1978م، ص27-30.

والمقابر، شواهد شاخصة على هذه العبقريّة، الى يومنا هذا، وفي معرض كشف العلماء عن حجم العلوم المصريّة ، يقول العالم (هانز فوديك-Hans Wodeck) : " إنّ الهرم من أكبر الصروح كمالات، حينما يقف المرء أمامه، ويرنو ببصره نحو القمة(الذروة) فيبدو أمامه ثمة طريق يؤدّي به الى (اللامحدود) ليكون خط ولوج عالم الإنسان البعيد" (1).

إنّ ما يستدل به العلماء على تأثير العلوم المصريّة، كالشواهد الأثريّة، هو جزء قليل ممّا تحمل عظمة الحضارة المصريّة من كنوز تراثها، لاسيما في مجال العلم (خاصة الطب والكيمياء والهندسة، وعلوم الأرض، وغيرها). لكن ما ساقه العالم (هانز فوديك) عن تشييد الهرم الذي هو من عجائب الدنيا السبعة، يقف ذهن العاقل لطريقة تشييد الهرم في تلك الحقبة الغابرة، وما يملكه من أدوات ، بها تم البناء على قواعد وحسابات دقيقة، لا يزال التركيب محيرّ للألباب، ويوضّح العبقريّة المصريّة آنذاك في مجال العمران وبناء المدن، والسدود، والقلاع المنيعّة، وغيرها من الآثار التي لاتزال شامخة ومقاومة للانهيّار والضياع والنسيان. إنّها حقا تستحق التقدير والاهتمام والاعجاب بحضارة إنسانيّة لا يمكن تجاهلها أو المرور عليها هكذا دون الاستفادة منها . وهذا هو حال الحضارة المصريّة العريقة التي تركت للأجيال اللاحقة التحدث عنها بموضوعيّة على أنّها حضارة عملاقة يستحيل طمس معالمها بسهولة.

ولعلّ أهم ما أخذته العقليّة الإغريقيّة عن مصر هو الهندسة التي تعدّ النموذج الأصلي للمعرفة، حسب مذهب أفلاطون(Platon)، وبديهي أنّ طاليس (Tales) هو الذي حمل عصاه وقاس ارتفاع الأهرام، لكن هناك مسائل أخرى اضطر الى حلّها مشيّدوا تلك الصروح، نعم إنّ المصريين لم يضعوا نظريات البناء الهندسي كما فعل "إقليدسEuclid"؛ لكنهم استخلصوا نتائجها ومبادئها وحلولها؛ كما تشهد بذلك أعمالهم. ويظهر تأثر الإلاطون بالعلوم الرياضيّة ، وخاصة الهندسة، في تلك العبارة التي توجّ بها مدخل أكاديميته فقال: " لا يدخل الأكاديمية إلا من كان ملماً بالهندسة " (2).

(1) عبد الغفار مكاوي، "لم الفلسفة؟"، الاسكندرية، 1982م، ص118-119. نقلا عن: جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (بدايات التأمل الفلسفي)، ص164.

(2) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (بدايات التأمل الفلسفي)، ص167.

لذلك فقد جعل من دراسة العلوم الرياضية تمهيدا لدراسة الفلسفة في نظام تربيته للحكام الفلاسفة، أما العلوم الرياضية التي كان أفلاطون يعنيها في هذا النظام، فهي الحساب والهندسة، والفلك والموسيقى، وهو لا يعني بالحساب في العدّ الذي يستخدمه التاجر أو القائد، ولكنه يعني به دراسة نظرية للأعداد وخصائصها.

أما الهندسة فهي ليست قياس المساحات، ولكنها دراسة للنسب المعقولة، ولكن المعرفة الرياضية على الرغم من أهميتها عند أفلاطون تظل في مرتبة أدنى من معرفة المثل، وذلك لأنّ الرياضة تعتمد على فروض ومسلمات ليس وجودها يقينا،....ولذلك يسميها بالعلم الذي لا يستغنى عن استعمال الفروض، والضرورة فيها ، ضرورة فرضية، كما يقول أرسطو⁽¹⁾.

ثم إنّ المؤرخين اليونانيين والفلاسفة اليونانيين، أنفسهم ، قد اعترفوا بسبق المشاركة لهم في ميدان التفلسف؛ كما اعترفوا بفضلهم في هذا المجال؛ وكانوا يتحدثون باحترام جمّ عن العلوم والحضارة الشرقية. فهيرودوت مثلا في كتابه: "هيرودوت يتحدث عن مصر"، يرى أنّ الدين والحضارة اليونانية قد جاءا من مصر. كما يرى أنّ الفلاسفة اليونانيين، قد استفادوا من المصريين، النظريات الخاصة بخلود النفس، والتناسخ.

وأفلاطون في كتابه: "الطيمائوس" ، يوجه على لسان كاهن مصري، خطابا الى أحد اليونانيين، يدعو حقيقة الى التأمل ، والتعجّب، والاستغراب. فهو يقول: "أيّها اليونانيون.. إنكم لا تزالون أولادا في المعرفة، ولم يبلغ بعد أحدكم بها مرتبة العجائز"⁽²⁾.

فلاشك أنّ الإغريق عندما زاروا البلاد في عهد الأسرة السادسة والعشرين، قد تأثّر خيالهم بطبيعة الحالة بقدمها: "أنتم معشر الإغريق أطفال على الدوام، إذ لا يوجد رجل هرم بينكم"⁽³⁾. هذا ما قيل إنّ الكاهن المصري أنبأ به صولون... "ولا يغيب عنا أن هذا الاتصال الذي فتح بابا للتفكير الإغريقي، قد تلاه عصر التعاون بينهم، وبين المصريين في موطن العلم الذي لا نظير

(1) جمال المرزوقي، مرجع سبق ذكره ، ص167. بتصرف.

(2) نقلا عن : مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 48.

(3) جمال المرزوقي، مرجع سبق ذكره ، ص168.

له في العالم، وهو الإسكندرية، تلك المدينة التي نجحت في جمع الشرق بالغرب ⁽¹⁾. ومثل هذه التأكيدات على تأثير التفكير المصري في الحضارة اليونانية وغيرها من الحضارات السابقة واللاحقة، يضعنا أمام حقيقة تاريخية واضحة، بأنّ كلّ حضارة قد أسهمت في أي مجال من مجالات الحياة العامة، وبأنّ العلم يساير الحظ الوافر في نفع الناس مهما كانت مشاربهم الفكرية والثقافية والسياسية والاجتماعية، في دائرة واسعة من الأخذ والعطاء، والتقدم والرقى يأتي من باب التأثير والتأثر بشكل طبيعي وفعال. ونرى فيما بعد تأثير التفكير المصري القديم في حضارة أخرى أكثر فعالية واستمرارية، وهي الحضارة الصينية الممتدة عبر العصور بثقافتها الواسعة والعجيبة، لنعرف مدى اسهاماتها كذلك، من خلال فصل خاص، نريد التفصيل فيه .

(1) المرجع نفسه، ص168.

الفصل الثالث

التفكير الصيني القديم

الفصل الثالث: التفكير الصيني القديم.

المبحث الأول: بدايات التفكير الفلسفي الصيني القديم.

إنّ النظر في بلاد الشرق القديم يوضح لنا كيف أنّ المبادئ الخلقية عند بتاح حوتب" مثلاً؛ قد أصبحت متداولة بين الناس، وأثرت في حياتهم. فقد احترم الناس والفلاسفة هذه الأفكار وتناقلوها وعبروا عنها بصورة مختلفة ، والأهم من ذلك؛ أنّها سرت في حياتهم وأصبحت تقاليد مرعية ومبادئ ينبغي توقيرها والسلوك وفقاً لها.

ونفس الشيء نجده في الصين القديمة حيث "أصبحت الكونفوشية بعد وفاة صاحبها هي الفلسفة الرسمية في الصين، لدرجة أنه كان يصعب على أيّ فرد أن يحصل على وظيفة حكومية دون أن يكون قد عرف أعمال كونفوشيوس-Confucius ، وتحلّى بأخلاقه وتجلّى بمبادئه" (1)، وبشكل عام فإنّ الإنسان الصيني كان بتأثير فلاسفة الصين دائماً ما يتساءل: كيف يمكنني أن أكون خيراً؟

ولما كان يعرف أنّ الخير_كما قال كونفوشيوس_ هو معرفة الطريق الوسط والسلوك وفقاً له حتى يتناغم سلوكه مع سلوكيات الآخرين وتتحقق السعادة للجميع، ولما كان يعرف_كما قال لاوتسي_ أنّ الخير في أن يسلك السلوك المتوافق مع طبيعته، ومع الطبيعة الخارجية، لما كان يعرف ذلك فقد كان يحاول أن يحقق هذا المثل الأعلى في سلوكه العادي باستمرار" (2). لأجل ذلك كانت الفلسفة الأخلاقية الصينية، أول من تعاملت بالمبادئ الأخلاقية، القائمة على الكيف؛ أي: كيف يمكنني أن أكون سعيداً في حياتي ؟

تقوم الحضارة والثقافة الصينيتان على أساس فلسفي تشكّله في المقام الأول، مبادئ الكونفوشية والتاوية والكونفوشية الجديدة . وقد قامت هذه الفلسفات الثلاث بتشكيل حياة الشعب ومؤسّساته، وكانت مصدر إلهام لها عبر ما يزيد على خمسة وعشرين قرناً من الزمان . وكانت الفلسفة الصينية التي أكدت على أهمية المحافظة على الحياة الإنسانية العظيمة ورعايتها، مرتبطة أوثق الارتباط

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة ، ص27_28.

(2) المرجع نفسه، ص28.

بالسياسة والأخلاق، واضطلعت عظم وظائف الدين؛ ومن هنا فإنّ دراسة الفلسفة الصينية هي دراسة لها قيمتها، لا بسبب جدارتها الجوهرية فحسب ؛ وإنّما كذلك بسبب الاستبصارات التي تجعلها ساكنة للعقل الصيني⁽¹⁾.

ولم يكن الهدف الرئيسي للفلسفة الصينية هو في المقام الأول فهم العالم، وإنّما جعل الناس عظماء. وعلى الرغم من أن الفلسفات الصينية المختلفة يشكل هذا الهدف قاسما مشتركا بينها، فإنّها تختلف إلى حد كبير، نتيجة الاستبصارات المختلفة عن مصدر العظمة الإنسانية⁽²⁾. والأكثر من ذلك فهي فلسفة أخلاقية واجتماعية على صعيد واحد.

قد ترجع بدايات الفلسفة الصينية باعتبارها حيصا نقديا للطبيعة الإنسانية، وطريقة الحياة الصحيحة، إلى أقوال كونفوشيوس ولا وتسو. وعلى الرغم من أن هذا يعني أنّ الفكر الصيني السابق على حوالي منتصف القرن السادس قبل الميلاد هو فكر ما قبل الفكر الفلسفي، فإنّ ذلك لا يعني أن فلسفة كونفوشيوس ولاوتسو لكن فهمهما دون تمحيص للتراث الصيني السابق على الفلسفة. وإنّما الأمر على العكس من ذلك؛ وحيث إن الكونفوشية والتاوية هما استجابتان نقديتان حيال نظريات، و ممارسات سابقة من الضروري أن نضع صورة للصين في مرحلة ما قبل الفلسفة في أذهاننا⁽³⁾.

هذا؛ ويؤدّي التأكيد على العظمة الإنسانية بصورة طبيعية إلى التأكيد على الأخلاق والحياة الروحية ؛ فالروح، وليس الجسم، هي الجانب الأهم في الوجود البشري ؛ وهذه الروح لا بد من تغذيتها ورعايتها، لكي تتطور بحسب قدراتها ، ولقد كانت الحياة الأخلاقية مطلبا مسبقا لهذا التطور ،وتلك إحدى الخصائص البالغة الوضوح في الكونفوشية⁽⁴⁾ ؛ حيث لا يمكن إنكار جوانب تأثيرها في الحياة العامة، لا سيما ذلك التطابق بين المبادئ والسلوك في التعاملات اليومية.

(1) جون كولر، تر/ كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، الفكر الشرقي القديم، «سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1، يوليو 1995م، الكويت، ص311.

(2) المرجع نفسه، ص311.

(3) المرجع نفسه، ص317.

(4) المرجع نفسه، ص 313.

ومن الخصائص المميزة للفلسفة الصينية؛ التأكيد على التكامل لا التناقض؛ وغالبا ما يتم النظر إلى الآراء والمبادئ لا على أنها مختلفة فحسب، وإنما على أنها متعارضة كذلك. ولكنها بالطبع إذا كانت متعارضة؛ فمن الضروري أن لها أساسا مشتركا. وفي الفكر الصيني يتم التشديد على ذلك الأساس المشترك، وينظر إلى الخلافات على أنها تكاملية، وليست تناقضية؛ حيث يتم النظر إلى الخلافات باعتبارها مكمل بعضها للبعض الآخر، وبالتالي فإنها تشكل كلا واحدا⁽¹⁾.

وبالنسبة لكونفوشيوس **Confucius**؛ "كان الشيء الأكثر أساسية هو رعاية الإنسانية، وتنظيم كل الأنشطة بحسب هذه الإنسانية المتطورة؛ ويقول أحد النصوص الأساسية في الكونفوشية: "كان القدماء الذين يرغبون في إبراز شخصيتهم النقية للعالم، يعمدون أولا إلى نشر النظام في دولهم، والذين رغبوا في نشر النظام في دولهم كانوا ينظمون عائلاتهم أولا، والذين رغبوا في تنظيم عائلاتهم، كانوا يراعون حياتهم الخاصة أولا"⁽²⁾.

هذا يعني؛ أن النظام العام للشخصية الصينية، متكامل من كل الجوانب، ومن كل الفئات المجتمعية، بداية من الفرد إلى العائلة إلى المجتمع ثم الدولة التي ترعى هذا الكيان. بالإضافة إلى ذلك، نستنتج أن مبررات وجود مثل هذا النظام المنسجم، كانت له خلفيات وأبعاد متداخلة ومتعددة، حيث كان الحكيم الصيني يحرص على الإصلاح، ويذكر المجتمع بحالات الفوضى التي أدت إلى تدهور الحياة العامة من فساد في أخلاق المجتمع، ومنه تم انحطاط الدولة، مما سبب في الغزو والاحتلال من الدول المجاورة.

من أجل ذلك؛ كانت الحاجة إلى الفضائل الكونفوشية، بالإشارة إلى الشر الكامن في الطبيعة الإنسانية. وهكذا بينما يؤكد منشيوس على الحاجة إلى دراسة الفضائل الإنسانية والاستقامة، وولاء الأبناء للآباء للحفاظ على الطابع الإنساني⁽³⁾، نقصد به الطبيعة الإنسانية الصينية، القائمة على المبادئ الأخلاقية التي ترغب في الاستقرار النفسي للشخصية الصينية، التي لا يمكنها أن تتصرف وحدها، دون التعايش بين الأفراد الذين يشكلون العائلة أو المجتمع المنسجم الواحد.

(1) جون كولر، المرجع نفسه، ص 314.

(2) المرجع نفسه، ص 312.

(3) المرجع نفسه، ص 321.

ويذهب "ه.ج. كريل-H.G. Creel" في كتابه: "الفكر الصيني من كونفوشيوس الى ماوتسي تونغ"، الى القول: "ويعلم غالبيتنا أنّ الصين قدمت للحضارة الورق والبارود، ولكن كم منا يعلم أن الروايات التي تدور حول نظرية المساواة وممارستها في الصين، قد لعبت دورا في تطوير مفاهيم الإنسانية والديمقراطية السياسية في الغرب خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر؟⁽¹⁾.

إنّ هدفنا هو إظهار الحضارة الصينية بكاملها وتقديم هذا الكنز من الحكمة والجمال تراكم منذ خمسين قرنا. ولكن قبل أن نتحدث عن الصين، قد يكون من المفيد أن نترك الصين نتحدث عن نفسها، ماذا تقول الصين عن العالم وعن عشرات الآلاف من الأشياء تحت الشمس؟ ماذا تقول عن الفرح، عن مأساة العيش، عن السعادة، عن الألم، عن الماضي، وعن الحاضر.

و كما يقول كونفوشيوس: " مثل المرأة، يجب أن يعكس قلب الحكيم كل شيء دون أن يأتي خطأ واحد ليغشيها"⁽²⁾؛ ويعني بذلك التحلي بالقوة الحسنة، هي الدليل الى تهذيب السلوك الإنساني، والتي تجعل منه خالدا بين قلوب الناس. ومما يعني كذلك حكمة الرجل الصيني الذي ينظر للمستقبل في هدوء وسكينة، لذا تقول حكمة كونفوشيوس: " نستخدم العدسة لكي ندرس شكل الأشياء بصورة أفضل: ينبغي كذلك دراسة الماضي إن كنا نريد فهم الحاضر"⁽³⁾.

إنّ النحو الخاص للغة الصينية يسمح للصيني بالتعبير عن هذه العلاقة بصورة مقتضبة جدا. إذّ يكفيه لذلك أن يضع الفعل بعد الاسم. يوجد مَثَلٌ صيني يقابل حكمة كنفوشيوس: " عامل المُسن كمنس، والشاب كشاب"⁽⁴⁾.

لقد سبقت حكم كنفوشيوس على حكم الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط(1724-1804م)" بقرون، عندما نطق بالقانون الأخلاقي المعبر عن المعاملة الحسنة، لا لمصلحة او منفعة، وإنما يتعلق الأمر بذات إنسانية محترمة؛ ذلك أنّ الحكم الصينية نراها قد أثرت نوعا ما في الفلسفة الأخلاقية الغربية. ولأنّ الفارق الزمني مهم للمقارنة بين حضارة صينية ممتدة في المبادئ الأخلاقية.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 43.

(2) فان براج، حكمة الصين، تر/ موفق المشنوق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م، دمشق، ص43-44.

(3) المرجع نفسه، ص44.

(4) المرجع نفسه، ص82.

لقد أشار "دوفاندك" الى أن تبرير الأسماء لـكنفوشيوس ينطوي على حضارة سكونية. وكتب بهذا الصدد في المجتمع السكوني، تثبت الطبيعة بحد ذاتها قيمة هذه المبادئ بصورة نهائية . وطالما ظل الناس يكتفون سلوكهم الخارجي مع هذه المبادئ، يكون الوضع ما يجب أن يكون عليه. عندئذ كل اسم يطابق حقيقته ويتوطّد نظام العلاقات بين الرئيس والمرؤوس وتكون الحكومة متوازنة⁽⁵⁾.

وما من شيء في الحياة اليومية الصينية، لم يتأثر بطريقة أو أخرى بالكنفوشيوسية. وما من عمل هام، وما من سلوك عائلي، حب وصداقة، وما من عمل أدبي أو فلسفي، وما من مراسم، وما من مظهر من مظاهر آداب المعاشرة، وما من عمل اجتماعي قد نجا من تأثير كنفوشيوس .

لقد كتب الكاتب الصيني تشينغ-تشانغ لو عام 1909م، في صحيفة انجليزية : " خلال الألفي وخمسمائة سنة المنصرمة، لقد عشنا في الصين على رأسمال جمعه أسلافنا، ولقد حفظت لنا بصيرة وحكمة فيلسوفنا العظيم كنفوشيوس ذكراه وخبرته الثمينة، وبدونه لكان الشرق الأقصى، الصين - كوريا-سنام، وحتى اليابان القوية للغاية اليوم، قد غرق في أعماق البربرية"⁽²⁾.

وقبل قرون عديدة من الميلاد ، كان كنفوشيوس ينطق بهذه الأقوال الذهبية :

"جميع الناس، بين البحار الأربعة، أخوة.

لا تفعل للغير ما لا تحب أن يفعله الغير لك"⁽³⁾.

هذا دليل واضح على ميزة الحضارة الصينية، دون الحضارات الأخرى بالحكمة في تدبير أمور الحياة للإنسان والمجتمع والدولة، بل تمتّعت الشخصية الصينية بالمهابة والوقار، والاحترام، كانت لتعاليم حكماء الصين النصيب الأوفر في التنشئة الأخلاقية، لا تزال ظاهرة في آداب المعاشرة والصداقة ومختلف التعاملات الحياتية بقدر كبير من الوعي والبصيرة .

إنّ أقوال الحكيم الصيني؛ تنتهي الى الصدق بالقول في العمل، والمساواة بين جميع الناس في أخلاق المعاملة، ترتبط بالممارسة الفعلية لرابطة الأخوة. ولأنها تشمل بني البشر، فهي مقبولة من حيث المبدأ والتطبيق.

(1) فان براج، حكمة الصين، ص83.

(2) المرجع نفسه، ص98

(3) المرجع نفسه، ص98.

المبحث الثاني: مبادئ كونفوشيوس الأخلاقية.

من المعروف أنّ كونفوشيوس -"Confucius" الذي عاش بين عامي 551_479 قبل الميلاد، هو المؤسس الحقيقي للفلسفة الصينية، وكان أول من أقام نسقا حقيقيا لفلسفة عن الإنسان، وذلك على الرغم من أنه استمر يحافظ على الاعتقاد التقليدي في السماء باعتبارها الإله الأساسي عند الصينيين، وقد اعتبر نفسه مفوضا من السماء برسالة مقدّسة. لكن مفهومه عن السماء جاء مختلفا عن المفهوم التقليدي⁽¹⁾، فهو لم يعتبر السماوات مجسّمة في صورة انسانية فحسب، بل نظر إليها على أنّها طبيعية من بعض الوجوه. ومع ذلك هناك علاقة بفلسفة الإنسان حول الطبيعة .

لقد كان يبتعد كثيرا عن مناقشة الأمور الدينية_ رغم الفكرة السائدة بأنّه كان رسولا نبيا_ ويبدو ذلك من فقرات عديدة من كتابه المهم المقتطفات الأدبية "Analects" ؛ قد ذكر أحد طلابه أنه لم يكن يناقش "الطاو"، أي طريق السّماء ، كما أنه ردّ على سؤال لأحد طلابه عن كيف يستطيع المرء خدمة الأرواح ، لذلك كان يقول: " إذا كنت عاجزا بعد عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم الأرواح ، وحينما سأله آخر عن الموت، أجابه: إذا كنت لم تفهم الحياة بعد، فكيف تستطيع أن تفهم الموت ؟"⁽²⁾

من هذه الكلمات يتّضح لنا أنّ كونفوشيوس؛ كان يحجم عن الكلام فيما وراء الطبيعة، وعن السّماء الإله، لصالح الاهتمام بالإنسان وبالحياة الانسانية الطبيعية. لقد حوّل أنظار الصينيين من التفكير في خوارق الطبيعة الى التفكير في الإنسان ذاته، وهذا هو نفس ما فعله سقراط في الفلسفة الغربية اليونانية بعد ذلك "⁽³⁾. وقبله الفلسفة السفسطائية التي أنزلت الفلسفة من السماء الى الأرض، أو الاهتمام بالإنسان بحكم أنه هو مقياس كل الأشياء، ومن هنا، كانت بداية التفلسف الإنساني.

ومن هذا المنظور؛ كان كونفوشيوس أول فيلسوف صيني يطرح سؤالاً عن طبيعة الإنسان(هينج)، وقد جاءت إجابته بسيطة وعميقة في نفس الوقت، فقد قال إنّ النّاس سواسية

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص 147-148.

(2) المرجع نفسه، ص 147.

(3) المرجع نفسه، ص 148.

خيرين بطبيعتهم ولكنهم كلما شبّوا اختلف الواحد منهم عن الآخر تدريجيا وفق ما يكتسبون من عادات وأنّ الطبيعة البشرية مستقيمة، وإذا ما افتقد الإنسان هذه الاستقامة افتقد معها السعادة. ولاشك أنّ هذا تصوّر الكونفوشي للطبيعة الإنسانية الخيرة وللتوحيد بين حياة الاستقامة والسعادة شديدة الشبه بتعاليم سقراط وأفلاطون الأخلاقية⁽¹⁾.

لقد كثر حديث كونفوشيوس عما أسماه **جين** "jen" أي الطبيعة الإنسانية للإنسان، وهو لفظ يتضمن في طياته المبدأ الأخلاقي الأسمى الذي ينبغي أن يحكم سلوك الانسان في علاقته مع الآخرين، فجين " معناها أن تحب الإنسان وفوق كل ذلك أن تحب كلّ الناس"، وقد قال كونفوشيوس في شرحه لمعنى "جين" وفي توضيحه لجوهرها أنّ على الإنسان ألا يصنع مع الآخرين ما لا يحب أن يصنعه معه . إنّ رجل الجين المحب للإنسانية هو ذلك الذي يؤدّ أن يبني خلقه ، وأن يبني خلق الآخرين على أن يكونوا كذلك. وإنّ تمنّى أن يكون بارز الشأن متفوقا بين أقرانه، فهو يساعد الآخرين على أن يكونوا كذلك. إنّ الجين عند كونفوشيوس تقوم على أن يقهر الإنسان نفسه ويعود الى آداب اللياقة والاحتشام⁽²⁾.

لقد بعثت روح كنفوشيوس في ريشة كلّ اديب صيني، فهو الذي صنع الجمال الرائع للأدب الصيني الكلاسيكي.... وفيما بعد، اطلق عليه اسم لقب المعلم، وفي الصينية فوتسو-قونغ فو تسو: "قونغ المعلم". لقد تألم تألما عميقا للفوضى ولانحطاط الأخلاق في الصين أيّام زمانه. لقد كافح طوال حياته للإصلاح عن طريق الاقتناع والقدوة⁽³⁾.

إنّ التعاليم الأخلاقية الصينية؛ قد نهلت من حكم كنفوشيوس التي تحمل السكينة في قلب الإنسان البسيط، دون تكليف؛ لأنّها نابعة من الطبيعة الإنسانية، لذلك كان لها الأثر العميق في الفكر الأخلاقي الصيني منذ قرون. وعليه نسبت إليه التعاليم السلوكية الداعية لاصلاح النفس الإنسانية.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص149.

(2) المرجع نفسه، ص149.

(3) فان براج، حكمة الصين، ص98.

إنّ الميزة الكبرى لكونفوشيوس تكمن في كونه نقل الـ "لي" من الصعيد الفلسفي الى صعيد الحياة اليومية، ليجعل منه قيمة عملية ومن هنا جاء المآخذ، بأنه اقترب من الابتذال.

ولأنّ التقاليد القابلة للنقاش والمعتراض عليها، تجعله يعيش بين (551-479 قبل الميلاد). ربّما يكون قد مات قبل عشرة أعوام من مولد سقراط، وقبل وفاته، ربما قال لحفيده ومريده "تسو-سو": "الجبل الكبير ينهار، والعارضة الرئيسية تتحطم، والحكيم يذبل"⁽¹⁾، إلّا أنّه كان بإمكانه أن يكون راضيا عن حياته. لقد أنجز عملا مفيدا للغاية؛ ذلك بتبديده العقلية السّحرية التي كانت تفرق بها الثقافة الصينية لصالح عقلانية حديثة. وغني عن القول أن مثل هذا التطور يتطلب عدة قرون حتى ينجز تماما. لذلك قال كونفوشيوس ذات يوم لمريده "تسو-سو": "إنّ مذهبي هو وحدة تربط بين جميع الأشياء"⁽²⁾. هذا المذهب هو بالفعل يجمل كافة القيم الدينية والفلسفية والأدبية والعلمية والسياسية للصين. وربّما يقصد به الطريقة الحكيمة في تشكيل العقلانية الرزينة التي تهتم بالإنسان طول حياته، أي: تسعى الحكمة الصينية للحفاظ على التوازن الأخلاقي والروحي للفرد في سعادة دائمة ومستمرة، والحرص على أن تكون حياته مستقرة. وهذا ما نلاحظه اليوم من ملامح الشخصية الصينية باسم الحفاظ على الكرامة الإنسانية والتي سوف نتحدث عنها في مبحث المبادئ الأخلاقية. يقول يانغ تشو: "من بين ألف إنسان، ما من أحد يعيش حتى مائة عام، ولكن لنفترض أنّه يوجد من بين الألف واحد معمر مئوي، فإنّه يقضي جزءا كبيرا من حياته في عجز الشباب الأول، وفي هرم أواخر الشيخوخة ويستهلك أيضا جزءا كبيرا من عمره في النوم ليلا والشرود نهارا، ويصبح جزءا آخر عقيما من الحزن والخوف"⁽³⁾.

وتقول الأسطورة إنّ إدارته وعدالته كانتا تتمان عن نزاهة كبيرة بحيث أن أمراء الجوار اتخذوه قدوة. وفي الثالثة والخمسين من عمره، أصبح وزيرا للخارجية وفيما بعد وزيرا للعدل. وفي السادسة والخمسين أصبح رئيس حكومة. لقد امتدّ نفوذه وتبيّن أن اصلاحاته كانت مثمرة "⁽⁴⁾

(1) فان براج، حكمة الصين، ص97.

(2) المرجع نفسه، ص97.

(3) المرجع نفسه، ص20.

(4) المرجع نفسه، ص99.

ووفقا للتراث فإنّ كونفوشيوس استمد إلهامه من الكتب الكلاسيكية الخمسة ، والتعبري عن فكره متضمن في الكتب الأربعة. والكلاسيكيات الخمسة؛ هي كالتالي:

- 1-كتاب الشعر (شيه تشينج Shih Ching)، وهو مجموعة من الأشعار تعود إلى عهد تشو.
- 2- كتاب التاريخ (شو تشينج Shu Ching)، وهو مجموعة من السجلات والخطب والوثائق الرسمية من 2000 إلى 700 ق.م.
- 3- كتاب التغيّرات (اي تشينج Ching-H)، وهو مجموعة من الصياغات لتفسير الطبيعة تستخدم على نطاق واسع في أغراض العرافة) ويعزى هذا العمل تقليديا إلى وينج وانج (Weng Wang) 1100 (ق.م)
- 4-كتاب الطقس (لي تشي Li chi)، وهو مجموعة من القواعد التي تنظم السلوك الاجتماعي⁽¹⁾.
- 5-حوليات الربيع والخريف (تشو تشو Chun chiu)، وهو تأريخ للأحداث في الفترة من 722 إلى 464 ق.م.

وللتذكير فقط؛ فإنّ الحكيم كنفوشيوس لم تكن من عاداته أن يستغل تلك الكتب للتأثير على الحياة العامة آنذاك، وإنّما نشرت من طرف تلاميذته ومريديه، قصد التأكيد على العبقريّة الصينية التي تتحدث بالحجة والدليل، أو بالحكمة والموعظة في تسيير حياة الناس وانقاذهم من الفوضى . ويُقال كذلك بأنّ تأليف هذه الكتب قد تمّ بعد كنفوشيوس بوقت طويل ، ولكنه قد مثل بصورة جيدة القواعد والعادات التي تعود إلى عصور سابقة. والكتب الأربعة هي:

- 1-مختارات كنفوشيوس (لون يو Lun yu) وهي أقوال كنفوشيوس لتلاميذه ، وقد قاموا بجمعها وتنسيقها.
- 2- العلم العظيم (تا هسو Ta hsueh) وهو يضم تعاليم كنفوشيوس، التي تحتوي اقتراحاته الخاصة بنظام الحكم⁽²⁾ . ويعكس هذا الكتاب تطوير هسون تسو لفكر كنفوشيوس.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص320.

(2) المرجع نفسه، ص320.

3- عقيدة الوسط (تشونج يونج Chung yung) ويضم تعاليم تنسب إلى كنفوشيوس حول تنظيم الحياة.

4- كتاب منشيوس (منج تسو Meng tzu)؛ وهو شروح على " مبادئ كونفوشيوس "، كتبها منشيوس، الذي يعد من الشراح الأوائل لكونفوشيوس. وجوهر تعاليمه؛ تتضمن في هذه الكتابات⁽¹⁾، يعبر عنه بالقول: " بأن الشخص من خلال تطويره لجوانبه الإنسانية الداخلية ؛ لكن أن يصبح عظيما في السلوك الشخصي، والحياة الخاصة، وكذلك في العلاقات مع الآخرين . وعندما يقوم كل الأفراد بذلك؛ فإنّ الخير سينتشر والسعادة ستتحقق"⁽²⁾. وبهذا نجد في الفلسفة الأخلاقية الصينية أنها أخلاق سعادة لا أخلاق واجب وقانون، كما هو في الفلسفة الغربية الحديثة.

ولنا أن نعود الى تحليل المبادئ الأخلاقية الصينية من خلال فكر الحكيم كنفوشيوس الذي إليه يرجع الفضل في تأسيس نظرية الكرامة الإنسانية، بحكم أنّ الطابع أخلاقي فلسفي قبل أن يكون دينيا؛ لأنّ الحديث عن الكرامة الإنسانية من باب تناول موضوع الخير الأسمى الذي يربي النفس البشرية على السجّية والأخلاق الفاضلة. بينما لم ندرس موقف كنفوشيوس من الناحية الدينية والروحية كما هو مطلوب، والسؤال: لماذا التركيز على الجانب الأخلاقي للسلوك الإنساني في فلسفة كنفوشيوس دون سائر الحكماء الصينيين أو غيرهم ؟

يقول كونفوشيوس: " إنّ ما يجعل البشر إنسانيين على نحو فريد هو "جين"⁽³⁾؛ وهذا هو السر في أن الطريق الكونفوشي هو في جوهره طريق " طيبة القلب الإنسانية". ولقد ترجمت الكلمة بطرق شتى ، و من هذه الترجمات :الفضيلة ، الإنسانية ، الإحسان، الرجولة الحقة، الطابع الأخلاقي ، الحب ، الخير الإنساني، وطيبة القلب الإنسانية"⁽⁴⁾. ونلاحظ في هذه الترجمات ،ذات طابع أخلاقي، يؤخذ بها، ولا يمكن انكارها ما دامت من طبيعة الإنسان في كل زمان ومكان.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص320.

(2) المرجع نفسه، ص321.

(3) المرجع نفسه، ص335.

(4) المرجع نفسه، ص335.

المبحث الثالث: الانسان في فكر الحكيم كونفوشيوس:

لو تأملنا في نصوص كونفوشيوس الأخلاقية، خاصة في كتابه: "تشونج-يونج"، حيث يقول: "إنّ الطبيعة هي الإرادة الإلهية الخالدة، وإنّ الحياة بحرية أو اتباع الطبيعة، هو واجب الإنسان أو "التاو"، وإنّ معرفة الواجب هو الدين نفسه. إنّ الواجب هو ذلك الشيء الذي ليس بمسموح لأحد إبعاده لحظة واحدة" (1). وهو طريق الحكمة التي تخلص الإنسان من متاعب الحياة، وتشعره بأنه حرّ؛ فتلك الطريقة هي الطبيعة المجبول عليها أداء الواجب الأخلاقي، وهو الدين نفسه، وهنا نتساءل عن مصير الكنفوشيوسية الأخلاقية، هل هي الدين نفسه، منبعه تلك الإرادة الإلهية ؟ وبمعنى أدق وصریح: هل يمكن اعتبار التعاليم الكونفوشيوسية دين أم لا ؟ وهل كنفوشيوس نفسه أعلن تعاليمه بأنّها دين تفرضه إرادة إلهية ؟ ومن ذا الذي جعل التعاليم الكنفوشيوسية ذات طابع أخلاقي تتحوّل الى دين وعبادة ؟

لقد اختصر كونفوشيوس (551-479 ق.م) مفهوم الـ "لي" في ثلاث جمل التي ترد بين الحكم الصينية الأكثر شهرة. ولقد أدخلها حفيده " تسو-سو" في كتاب "تشونج يونج"، أو مذهب البيئة الدائمة، وإنّنا ننقلها هنا :

أ/- ترتيب من السماء يسمى الطبيعة.

ب/- اتباع الطبيعة يسمى البساطة.

ت/- تهذيب البساطة يسمى الثقافة.

هذه الجمل الثلاث تعطي مفتاح كلّ الفلسفة الصينية (2).

ومعنى ذلك؛ إنّ كونفوشيوس لا يتحرّك في عالم صوفي، وإنّما في عالم أخلاقي، لذا كانت كلمتان تكفيانه للتعبير عن الفكرة: "ليكن سلوكك متفقاً مع اسمك"، وبإمكاننا ترجمة ذلك بـ " لا تجعل سوء سلوكك يلطخ سمعتك الحسنة" (3). وهذا المعنى يلخص لنا مفهوم الكرامة الانسانية التي تشعر

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص263.

(2) فان براج، حكمة الصين، ص93.

(3) المرجع نفسه، ص82.

بالحرية الكاملة في التصرف بحكمة وشجاعة، بعد تأمل في الظروف. والمشاهد للتعاليم الأخلاقية يدرك جيدا مدى تأثير تلك التعاليم في الإنسان الصيني خاصة، بعد الاضطرابات التي عاشها، وعليه كان في حاجة الى توجيه تربوي وأخلاقي لها.

بل ما أحكم الصلة بين نص "كونفشيوس" القائل: "إنّ الاعتدال هو الأصل والانسجام هو القانون العام"، وبين نص "كانط" القائل: "إنّ إرادة كل فرد عاقل معتدل هي المؤسسة للقانون العام"⁽¹⁾. هذا معناه ؛ أنّ الصلة القائمة بين بني البشر حول مدلول الخير والاعتدال والاستقامة المؤسسة على القانون الأخلاقي، هو من صنع عقل الإنسان نفسه في كل عصر، لذلك كانت عبقرية كونفوشيوس ممتدة في كون القاعدة الأخلاقية، ستبقى خالدة، ومطلوبة خاصة إذا كانت تنادي بالمبادئ الأخلاقية الرفيعة . فعلى سبيل المثال عندما قال حكمته الشهيرة : "إنها حبّ البشر"⁽²⁾. وكلّ الحكماء لهم تعابير شبيهة بمدح الناس في طبيعتهم وفطرتهم، ولهم أن يقولوا الإضل من ذلك، لكن ما يجمع الحكماء على قول الحكم، هو إيحائهم " بأنّ قدرتنا على الحبّ تشكّل جوهر إنسانيتنا. غير أنّ قدرتنا على حب الآخرين لها تبعات أخلاقية مهمة ؛ الأمر الذي يقتضي التفكير في " الجين" من منظور أخلاقي. وهكذا فإن كونفشيوس يقول: "يرغب كلّ إنسان في الثروة والشرف، ولكن تحقيقهما عن طريق مخالف (بإذى الأخلاق)، فإنه لا ينبغي الإبقاء عليهما"⁽³⁾.

وهذا تعبير جميل يوحي بعبقرية صينية استطاعت أن تؤثر في سلوكيات الناس، وتنظم حياتهم كما يجب، لا لمنفعة أو مصلحة، ولكن من أجل احلال الانسجام والتوازن، وتحقيق العدالة الإنسانية والعيش في كرامة واحترام كبيرين. لأنّ هذا الانسجام أملتة الضرورة الاجتماعية وليس من منبت تعاليم دينية وروحية. ومع ذلك فإنّ تعاليم كونفشيوس أثرت بشكل واضح، بحيث كانت بالغة الأهمية، لأنها تتسم بالحكمة في التعامل مع الحياة، دون الاضرار بالإنسانية كما عبّر عنها كونفوشيوس، ممثلة في شخصية المثقف الحازم، وعلى أنّه : " لا يقترف ما من شأنه الإضرار

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص265.

(2) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص 335.

(3) المرجع نفسه، ص335.

بالجين... و لا يسعى قط للحياة على حساب الإضرار بالإنسانية. وهو يؤثر التضحية بحياته، لكي يُحقق الإنسانية⁽¹⁾. وعليه تكون هذه النظرة للحياة إنسانية، تمتاز بالشمولية؛ ينفرد بها الإنسان ككائن عالمي أينما كان؛ وكأنّ كونفشيوس بهذه النظرة الشاملة، يدعوه للإصلاح والتهديب من سلوكه. لكن؛ هل يتفق البشر جميعا حول فضائل الحياة بنفس الأسلوب أو الطريقة ؟

مثلا؛ في الفكر الصيني القديم (كونفشيوس) ترتبط السعادة بالفضيلة الكاملة، وممارستها. والفضيلة كناية عن جميع أنواع السلوك البشري الحميد؛ كالقناعة، والزهد، والصدق، والاستقامة، والعدل، والمحبة والاخلاص الذي يحتل حيزا هاما من التفكير الكونفشيوسي، ومعناه: أن يحب المرء للآخرين ما يحبه لنفسه بالتزام؛ والذي به يتم كمال الوجود الذاتي، ويتسامى الفرد ، ليتحد ظاهره مع باطنه، وسلوكه مع علمه. والانسان غير الفاضل -بنظر كونفشيوس- هو الانسان الجاهل، الذي لا يعرف الاخلاص، والذي يفتقر الى الاستقامة والعدل، او ما يسميه ب: "الصفة الأساسية" التي يجب على الانسان الفاضل أن يتحلى بها ⁽²⁾.

صحيح؛ القول بأنّ الطيبة تخلق الانسجام بين السماء والأرض. فالطيبة هي القانون الأول للكون. وقابلية التلقي هي الموضع تأمل القديسين. لذلك؛ من يراعي الطيبة هو في مأمن، ومن يعتمد على قابلية التلقي يصبح قويا. المتلقون يعطون القدوة، البلهاء يُفتنون، ويفتنهم العنف والحكماء ينظمون وتتظمهم قابلية التلقي. وفي الأبدية، إن كنا لن نرى الاضطرابات، فذلك سيكون بفعل الطيبة وقابلية التلقي⁽³⁾. ومع ذلك فالمجتمعات ككلّ، تختلف عند التطبيق أو الممارسة، مع أنهم متفقون جميعا حول المبادئ أو القواعد؛ بل تعيش بعض المجتمعات معيشة ضنكة، مع امتلاكهم لحكماء أمثال كونفشيوس. وعليه؛ يكون الـ "لي": أو الطقوس أو آداب سلوك الإنسان المهذب، يتجنب وضع قدمه حتى على ظلّ جاره ⁽⁴⁾. كإشارة الى حسن التدبّر في الأمور والالتزام، ليتحسن السلوك.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص336، بتصرّف .

(2) فؤاد شبل، حكمة الصين، ج1، دار المعارف، مصر، 1967م، ص81.

(3) فان براج، حكمة الصين، ص105.

(4) المرجع نفسه، ص107.

لقد أخذ الباحثون القدماء منهم والمحدثون على "كونفشيوس"، أنه كان شديد العناية بأدب اللياقة، كثير المغالاة في المحافظة على تقاليد المقابلات والمعاملات، ووجهوا إليه من أجل هذه الملاحظة نقداً مرّاً رموه فيه، بأنّ التقاليد قد أثّرت عليه إلى أن ألّهته عن منزلته كفيلسوف. وممّا يؤيّد اندفاعه في هذا التيار الى درجة تخطّت الاعتدال أنّه سمّى ابنه: "لي" ومعناه؛ أدب اللياقة⁽¹⁾. والتعبير عن هذا التصرف يشير الى محاولة كونفشيوس أن يكون قدوة للمجتمع الصيني، وأن يرسم لهم خطوط الاعتدال والاستقامة، كما يجب أن تكون عليه الشخصية الصينية من الشعور بالكرامة الانسانية التي تفرضها نفسها في الواقع المعيش.

ويرى أولئك الباحثون-ولاسيما في العصر الحديث- أن هناك من الفضائل والخيرات العالية ما كان أولى برعاية كونفشيوس من تلك التقاليد الاجتماعية التي تتواضع عليها الشعوب حيناً، فتحترمها وتقّدها، وتستهجنها حيناً آخر فتحترقها وتدين فاعلها، ولم يكن إذاً جديراً بالفيلسوف الممتاز أن يجاري أهواء الشعوب صعوداً وهبوطاً؛ فيقدّس تقاليد اللياقة الى هذا الحد الذي ظهر في مؤلفات كونفشيوس⁽²⁾.

صحيح بأنّ تعاليم كونفشيوس الأخلاقية، كانت بمثابة القواعد الأساسية للحياة الاجتماعية في الحضارة الصينية، وقد نالت من المكانة الرفيعة الى درجة الاقتناع بها كمنهج في الحياة، ومنفذ للمجتمع الصيني من تلك الاضطرابات التي وقعت حينذاك؛ لكن أن تصل الى درجة من التقديس، والغلو في التأليه، وتحولها الى ديانة بعدما كانت مجرد تعاليم أخلاقية؛ فهذا ما يجعل الحضارة الصينية، تأخذ منعطفاً آخر في تعاملاتها مع مختلف الجوانب الحياتية، وتكون حضارة متميزة عن غيرها من الحضارات، من حيث الانفراد بطريقة منزوية في التأمل (درجة كبيرة من الانغلاق). وربما لم تجد مطلبها في التعاليم الكونفشيوسية الأخلاقية، لتبحث لها عن منفذ جديد في التفكير. وهذا ما وقع بالفعل، حين وجد المجتمع الصيني ضالته في البوذية (خاصة من الناحية الروحية) التي نشأت في الهند، وتطورت في الصين، وهو ما سندرسه في الفصل الموالي من هذا البحث.

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص270.

(2) المرجع نفسه، ص270.

الفصل الرابع

الفكر الهندي القديم

الفصل الرابع: الفكر الهندي القديم.

المبحث الأول: طبيعة التفكير الهندي القديم.

ويرى الباحث "بول ماسون أورسيل (Ourseil)"، أنّ الفلسفة الهندية، كناية عن مذهب عملي في الحياة أو طريقة عيش خاصة. فأعمال الانسان أو أفعاله هي التي تقرر في النهاية، ماهيته ومصيره (الفلسفة الوجودية)؛ وهي التي تشكّل بالتالي حياته المستقبلية، والتي تعمل على بعثه أو خلقه من جديد خلقا جديدا⁽¹⁾.

فالشيء الوحيد الجدير بالاعتبار لدى الفلاسفة الهنود، هو الفكرة التي تؤدي الى غاية مفيدة أو نتيجة نافعة، حتى قلة كانت هذه الفكرة ليست بصحيحة من وجهة النظر العقلية الصرفة. وعلى ذلك؛ فالفكرة النظرية، ولو كانت صحيحة بحكم العقل ويقتضيها العقل بحد ذاته، فإنها لا تعدّ كذلك، أو لا يُنظر اليها بعين الاعتبار، إذا لم يقرّها أو يساندها الواقع؛ بمعنى إذا لم تؤدّ إلى غاية مفيدة على الصعيد العملي المباشر⁽²⁾.

وإذن؛ فإنّ الفلسفة الهندية لا تأبّه ولا تكثرث مطلقا بالمعرفة العقلية، أو النظرية لأجل المعرفة، كما هو الحال في الفلسفة اليونانية، وإنّما بما يمكن أن تؤدّي إليه هذه المعرفة من فوائد مادية، وغايات عملية (فلسفة براغماتية)⁽³⁾.

وقد تؤدّي الممارسة في مجال التأمل؛ إلى موقف يبدو للمراقب عمليا وواقعا للغاية ، ولا شك أنّ ذلك يرجع على الأقل في بعض جوانبه إلى قدرة البوذيين على أن ينغمسوا في نشاط اللحظة الراهنة . وعندما يكون المرء في سلام مع نفسه ولا تتجاذبه ألف رغبة، ولا يعذبه عشرة آلاف شك؛ فإنّما أمكن أن ينغمس بحرية وبصورة كاملة في الأنشطة المطروحة أمامه⁽⁴⁾؛ فعلى سبيل المثال: لا ينظر البوذي عادة إلى تناول الطعام، والعمل، واللهو، على أنّها أنشطة يتبع القيام بها للتفرغ "لشؤون

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 43.

(2) المرجع نفسه، ص43.

(3) المرجع نفسه، ص43.

(4) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص310.

الحياة الحقيقية؛ وإنما تعدُّ هذه الأنشطة خلاصة الحياة ذاتها وصميمها ⁽¹⁾.

إنَّ السَّعادة في الفلسفة الهندية، لا تتولَّد من السيطرة على العالم الخارجي أو التحكم به، بواسطة العلم أو المعرفة؛ وإنَّما تحصل بالتكيّف مع الواقع الخارجي كما هو، بحيث لا يقوم أي نزاع بين الإنسان والكون، وبين الإنسان وغيره من الناس. وهذا التكيّف يتمّ عن طريق كفاح الروح أو النفس الفردية، "أثمن-Athman"، ضد نزعات أو رغائب البدن المادية، أي: عن طريق غير الإنسان ذاته، لا العالم ⁽¹⁾.

وعندما يتحرّر الإنسان من كلّ ميوله وأهوائه، حتى من الرغبة في الوجود والحياة؛ وعندما تتحكم نفسه في أمور البدن، وتترفع عن كلّ وشائج المادة التي تربطها بالدنيا؛ عندها يتحرّر الإنسان، ويقوم السّلام في داخله، ويصبح قادرا على الاتحاد بـ "البرهمن"، أو النفس الكلية الشاملة، ويصل الى النشوة المطلقة، أو النرفانا -Nervana ⁽²⁾.

ما نلاحظه في فلسفة التحرر لدى الإنسان القائمة على محاربة الأهواء والرغبات الموجودة فيه بالفطرة، يجعل من هذا تصوّر، ساخطا على وجوده ككائن تفأولي، يسعى لمواجهة التحدّيات، وأن يكون هو الكامل، الذي يصنع لحياته، طريقة مناسبة في للتكيّف مع الصعوبات، وإلاّ فلن يحصل على السعادة وإن كانت مؤقتة، وهذا ما لم تفكّر فيه الفلسفة الهندية .

وهكذا؛ نرى أنّ البوذية مذهب تشاؤمي، في تعاليمه الأساسية، وقد أسرفت في انكار حقيقة هذا العالم الحسّي، لدرجة أنه قد أوقعها ذلك في التناقض. فإذا كان كل شيء في العالم لا هوية له، ولا حقيقة ثابتة له، لأنه في صيرورة دائمة، فيجب التسليم أيضا قياسا على ذلك، بأنّ الآلام والأحزان، التي تولّد بعض ظواهر هذا العالم المتغيّر، لا حقيقة لها أيضا؛ وذلك شيء منطقي. فالعالم الذي لا حقيقة له، لا يمكن أن توجد فيه ظواهر أو أعراض، لها حقيقة ما. وإنّ، فلا مجال للتأكيد على ظواهر الحزن والشقاء الدائمين في العالم ⁽⁴⁾.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص310.

(2) مهدي فضل الله، المرجع نفسه، ص152.

(3) المرجع نفسه، ص152.

(4) المرجع نفسه، ص134.

المبحث الثاني: نشأة البوذية كفلسفة أخلاقية.

لقد تركت التعاليم الدينية الفلسفية الخاصة بالبوذية التي تمّ تحديد معناها في الصفحات السابقة أثرها في جانب كبير من الحضارة الآسيوية؛ فقد تغلغت البوذية على نحو يفوق أي دين آخر في الثقافات التي ارتبطت بها . ومن هنا فإنّه في سريلانكا وبورما وكمبوديا وتايلاند ولاوس؛ حيث سيطرت البوذية الشرفادية، وفي التبت والصين وكوريا واليابان وفيتنام، حيث كانت البوذية الهايانية مؤثرة؛ نجد معالم ثقافية بوذية بالغة الوضوح . وفي مقدمة هذه الخصائص الثقافية مايلي:

1- التأكيد على الكرامة الإنسانية.

2- موقف اللاتعلق .

3- التسامح.

4- روح الشفقة واللاعنف.

5- ميل إلى التأمل.

6- توجه عملي⁽¹⁾.

فالبوذية بهذا المعنى؛ هي طريقة للإدراك العملي لحقيقة اللامعانة ، التي يمكن الوصول إليها عن طريق الانضباط الذاتي والنقاء العقلي، وهي لا تقوم على أساس نواهي أرباب غيورة، ولا تتأثر بدعاوي الاقتصار التي تنطلق من مثل هذه الغيرة . وبناء على هذا فإنها متسامحة، حيال كل من الديانات الأخرى والتفسيرات الفردية المختلفة للتعاليم البوذية⁽²⁾.

(1)جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص 307.

(2)المرجع نفسه، ص 308.

لذلك؛ يستحيل الخلاص بالنسبة إليهم، لأنهم يعيشون خارج إطار البوذية، والأرض، والمعاناة اللذان يطاردان البشر يحدثان للشخص الفرد، والشخص الفرد هو الذي ينبغي أن يقطع الطريق من معاناة إلى السلام والسعادة. وهذا الإدراك يكمن في قرار احترام الخلافات الفردية في المجالات المختلفة في الحياة⁽¹⁾.

قد نطرح سؤال جوهري، وهو: " هل تتوافق أفكار البوذية مع الوجود الفردي ؟

تعتبر البوذية في نظر البعض، بأنها نموذجاً مثالياً ، يُظهر نفسه في هذا العالم بين الفينة والأخرى، لتخليصه مما يعانيه من آلام وأحزان. وفي هذا الصدد ، يقول أبو المكارم آزاد (أحد وزراء المعارف السابقين في الهند): " يبدو لي أنّ وضع بوذا في صفوف الفلاسفة أسهل من وضعه في صف الأنبياء ، وذلك لأنه لم يتعرّض في مباحثه لوجود الله، بل حاول حل مسألة الحياة، وانتهى منها دون التحرّش بالله وبوجوده. إنه قد قطع كل علاقة له مع الحياة الدينية في الهند التي كانت تدين بآلهة وإلهات لا تعد ولا تحصى " ⁽³⁾.

إنه بدأ بحثه وفرغ منه دون أن يلجأ الى الاعتقاد بالله. وإنّ الأساس الذي بني عليه بحثه أساس فلسفي ؛ فقال : " إنّ هدف الجهد الإنساني يجب أن يكون الوصول الى حل مسألة الحياة، وذلك من المستطاع دون الاستعانة بوجود فوق العقل"⁽⁴⁾. أجل، أسرع أتباعه بعد وفاته الى تحويل تعاليمه الى مذهب ديني. ولما وجدوا أنه ترك المكان الذي يحتله الله في الأديان فارغاً، عمدوا الى بوذا نفسه، فحملوه ووضعوه فوق عرش الإله الفارغ؛ إلا أنّ بوذا ليس بمسؤول عمّا فعله أتباعه "⁽⁴⁾.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص308

(3) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص131_132.

وعليه؛ إذا نظرنا الى الهند، فسنجد أنّ المفكر كان يحظى بالاحترام والتبجيل لدرجة عظيمة، وكان يمثل بالنسبة لعامة الناس القدوة والمثل الأعلى الذي ينبغي تقليد سلوكه وممارسة الحياة اليومية بالشكل الذي يرتضيه المفكر ويمارسه. وهذا ما نجده على سبيل المثال في تلك الحكمة العملية المتراكمة في الهند التي اتخذت شكل ترويض النفس (اليوجا) الذي يهدف في النهاية الى تحقيق ذلك التكامل المطلق للحياة. إنّ اليوجا التي يتم من خلالها ترويض النفس هي نشاط عملي تتمثل فيه كل صنوف الحكمة، فهي مزيج من التأمل المركز ونشاطات المعرفة والتذكر، وهي ممارسة للعبادة والتفاني.

كما نجد في البوذية صورة أخرى للتلاقي بين الفكر والحياة؛ فقد اعتنق ملايين الناس تعاليم بوذا؛ لأنه رسم لهم بأفكاره وبحياته طريق الخلاص من كل صنوف الألم والمعاناة التي تكتنف حياة البشر، لقد دارت تعاليم بوذا حول أسئلة حياتية محورية يلمسها كل إنسان في حياته اليومية ، ما الألم والمعاناة ، ما أسبابها ؟ كيف يمكن التخلص منها؟ وكيف يمكننا أن نحيا حياة تخلو من هذه الآلام؟

على هذا النحو كان التزام المفكر الشرقي بإثارة القضايا الفكرية من حياة الناس ومن ثم حاول أن يقدم حلولاً واقعية لها بقدر ما استطاع. صحيح أنّ هذه الحقوق كثيراً ما شابها الطابع الميتافيزيقي الصوفي إلاّ أنها وجدت هوى لدى الإنسان الشرقي الذي يتفاعل عادة مع هذه الأفكار ذات الصيغة الصوفية باعتباره إنساناً روحياً يغلب الفعل الموافق للروح على الفعل المحبب للبدن.

الفلسفة الهندية، فلسفة مسالمة، لا تسعى الى التصادم مع الواقع، وإنما تقبل هذا الواقع كما هو عليه، بكل تناقضاته ومتضاداته؛ لأنها تؤمن كما هو شأن الصوفية، بأنه صادر في الأصل عن مبدأ أعلى خير كل الخير، وترّة فيه الوحدة المطلقة في كل شيء، بالرغم من تعدّد الأشياء فيه في الظاهر. ومن هنا؛ كان إيمان غاندي Gandhi "(زعيم هندي راحل) بالتناسخ، وبالإنجيل والتوراة، والقرآن، والكتب الزرادشتية... الخ، فضلاً عن عقيدته الأصلية: الهندوسية"⁽¹⁾.

(1) مصطفى حسن النشار، الفلسفة الشرقية القديمة، ص28_29.

(2) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط1، 1994م، بيروت، ص151.

(2) المرجع نفسه، ص151.

أ/-البوذية والله:

يرى بعض الباحثين؛ أنّ البوذية قد تجنّبت الخوض في المسائل الميتافيزيقية، والبحوث اللاهوتية، وما وراء الطبيعة؛ وأنها لم تكن لتعير التفاتاً الى مسألة الحديث عن الله (الإله)، لا سلباً ولا إيجاباً. ولذا ، فإنّ الله موضوع متروك جانبا في البوذية.

لكن البعض الآخر؛ يرى أنّ بوذا، كان يسخر من القائلين بوجود الله، والحديث عنه. فهو يقول: "إنّ المشايخ الذين يتكلّمون عن الله، لم يروه وجها لوجه. فهم كالعاشق الذي يذوب كمداً، وهو لا يعرف من هي حبيبته، أو كالذي يبني السلم وهو لا يدري أين يوجد القصر..."⁽¹⁾.

بيد أنّنا نلاحظ أنّ أتباع بوذا من بعده، قد تحدثوا عن الله، وذهب بعضهم الى الاعتقاد بأن روح الله قد حلّت في بوذا، فأصبح هذا في جانب منه إنساناً، من حيث تكوينه المادي؛ وفي جانب آخر، إلهاً . وهكذا رفعوه الى مصاف الآلهة، وقبلوا كلماته على أنّها حقائق لا يتطرق إليها الشكّ. وهذا الاعتقاد يشبه العقيدة الثنائية المسيحية التي ترى أنّ شخصية المسيح، تتكوّن من ناسوت ولاهوت، وأنّ الشخصية اللاهوتية قد حلّت بالناسوت. كما ذهب فريق آخر من أتباع بوذا الى القول، إنّ بوذا كان إلها هبط الى العالم الأرضي، لكي ينقذه مما فيه من شرور ومأس، ولهذا ؛ فهو لم يتحدّث عن الله، لأنه هو: الله نفسه "⁽¹⁾.

والتعليق على هذا الموقف؛ هو أنّ أحد الفريقين على كذب وافتراء، أو كلاهما؛ إذا نظرنا الى منطق العقل، بحيث صرّح بوذا نفسه قبل الممات، بأنه فضّل الحياة الوسط، بأن قال: " خير الأمور أوسطها ". نظرا لشظف العيش الذي عانى منه، من خلال تجربته المريرة، بعدما كان يعيش فيترف و رغد. وهذا معناه: أنّ بوذا لم يطلب مصاف الألوهية، ولا غير ذلك، سوى إظهار طريقة في العيش الملائمة للناس من خلال تجربته الحياتية. وإلّا كيف يودّع الدنيا، ويترك ما خلق، إن كان يدّعي الألوهية ؟ أو كان موقف الأتباع بأنه إله خالد ، وهو يتلاشى ويفنى ؟ فمن ذا الذي يخلق الكون ثم يتعرض للزوال والفناء ؟ وأي عاقل يتقبّل هذه الفكرة ؟

(1)مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص130_131.

وكان الخلود أو اكتساب الحياة الآخرة، يرتبط في بداية الأمر، بالقيام بالطقوس الاحتفالية، وممارسة الشعائر الدينية، وتقدير الأضاحي للإله، فضلا عن السلوك وفق إرادته. ولم يكن كل انسان يستطيع القيام بتلك الشعائر المعقدة ، الإجراءات والباهظة التكاليف؛ ولذلك لم تكن سعادة الحياة الآخرة، إلا وقفا على فئة معينة من الناس، كما كان الحال عند المصريين القدامى.

وكان الاعتقاد السائد؛ هو أنّ الإنسان إذا ما قضى نحبه، فإنه إما أن يذهب الى عالم السماء (الجنة)، حيث يتمتع هناك بالحياة الأبدية، إذا كان قد قام بالشعائر الدينية الواجبة، وقدم القرابين الإلهية، وسلك السبيل السوي، أو الطريقة المثلى " أريان " Aryan في حياته الأرضية. وإما أن يذهب الى الهاوية أو الجحيم، لكي يعيش حياة دائمة من البؤس والعذاب⁽⁴⁾.

ب/- الألوهية في الفكر الهندي:

مع الإشارة ، الى أن نظرة الهنود القدامى -وقبل ظهور البوذية وغيرها من الفلسفات الهندية- الى الله وصفاته، تشبه الى حد بعيد، نظرة المصريين القدامى. فهو إله الآلهة، وربّ الكون، وذو القوة العليا التي ترتعد أمام قدرته، الأرض وما عليها، والسموات وما فيها، وتخزّ له ساجدة لعظم شأنه وجلاله. وهو الإله الذي ينصر المستغيثين، والخالق الرزاق الذي يمنح الأرض: المطر؛ ويهب الدنيا الضياء ..الخ. فمن أغنية في مدح الإله إنذارا، إله الآلهة:

هو الأعلى من كلّ شيء وهو الأسنى.

إله الآلهة ذو القوة العليا

الذي أمام قدرته الغالبة

ترتعد الأرض والسموات العالية

إنّما هو إنذارا إله الكون⁽²⁾.

هنا؛ يقرّ الإنسان الهندي القديم بوجود إله قوي وخالق، حمل كلّ صفات القدرة والعلو والكمال، كما أنّه يعترف بربوبيته في الكون الفسيح، لذلك يستحق المدح والثناء .

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 129.

(2) المرجع نفسه ، ص 132.

ج/- فكرة التناسخ(°):

وفي حوالي القرن السادس قبل الميلاد، نرى أن فكرة وعادة تقديم القرابين أو الأضاحي، فضلا عن القيام بجملّة الشعائر والطقوس الدينية لضمان الخلود والسعادة الفردية في الأبدية، قد أخذت تتلاشى، لتحل محلها فكرة بسيطة تتعلق بالمصير الإنساني، وتقوم على أساس التناسخ. ولعلّ العوامل التي ساعدت على نشأة عقيدة التناسخ، والتي أرضت الاحتياجات النفسية والشعبية لدى الهنود، تُماثل العوامل التي أدّت الى ربط الحياة الآخرة بالأعمال الفاضلة فقط، عند المصريين ، خارجا عن كل ما يمت بصلة الى الطقوس الدينية المعقدة، والشعائر الاحتفالية المكلفة، التي كانت وقفا على طبقة معينة من الناس، كما رأينا (1).

أما إذا خضع لأسر أهوائه، وقيود جسمه، وأحبّ الحياة، ورغب في الخلود، فإنه يعيش في شقاء دائم أبدي، وذلك عن طريق انتقال روحه بعد الموت الى جسد آخر، قد يكون جسم انسان آخر، أو جسم حيوان أعجمي، كجسم كلب، أو قطة أو حمار...الخ. وهكذا أصبح همّ الإنسان الهندي، العمل على تفادي الوقوع في التناسخ، والعودة من جديد الى الحياة الدنيا، أو الولادة من جديد في أجسام مختلفة؛ وذلك عن طريق التحلّي بالأخلاق الفاضلة، والابتعاد عن كل ما يمت بصلة إلى وشائج المادة والعمران، حتى الوصول الى حالة الانطفاء التام، وبلوغ "النرفانا"، والاتحاد بها الى الأبد، حيث السعادة القصوى، والسلام الدائم، والثبات الأبدي.

وقد قامت الفلسفة البوذية التي ظهرت في القرن السادس قبل الميلاد تقريبا على يد "سدهارتا جوتاما " Siddhartha Gautama " الذي يُعرّف باسم : بودا " Bouddha " أو البوذا (المستنير البصير) ، على فكرة التناسخ، وسنرى رأي البوذية في العالم، والله، والإنسان (2).

(°) التناسخ ينظر لهذا المصطلح في المعجم الفلسفي لمراد وهبة، بشيء من التفصيل . أو في المعجم الفلسفي عند جميل صليبا.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص129.

(2) المرجع نفسه، ص130.

د/-البوذية والإنسان:

الإنسان طبقا للتصور البوذي، ليس إلّا كائنا مركبا، دائم التغيّر والتطور. وهو يتكوّن من

خمسة عناصر:

1-البدن.

2-الأحاسيس.

3-التصور.

4-العقل.

5-الوعي.

أمّا الوجود الفردي أو الشخصي في نظر البوذية^(٩)، فهو أشبه ما يكون بالعربة التي يجرها الحصان. فهي في حقيقة أمرها" ليست إلا مجموعة من الأخشاب والمسامير وبعض المعادن، ركبت بطريقة معينة، ثم أعطيت هذا الاسم، دون أن يعني ذلك وجود جوهر متميز مستقل لهذا المفهوم من اللفظ"⁽¹⁾. وتتابع مراحل الحياة الإنسانية، من الطفولة الى الشباب الى الكهولة، فالشيخوخة، يجعل من الصعب النظر الى الشخصية الفردية، على أنها كيان مستقل، متميز، يتمتع بالديمومة والثبات"⁽²⁾.

ويبدو من خلال تلك العناصر الخمسة؛ أنّ الطرف الطاغي على الحياة الإنسانية ، هي النفس التي تعيش القهر والحرمان، رغم أنها هي الجوهر في ديمومة الإنسان، يعتبر الجسد بالنسبة لها عبارة عن سجن، تنتظر يوم للتحرّر منه، لغاية واحدة هي مزاولة الألم (لم يذكر نوع هذا العذاب في الفلسفة الهنجية)؛ لذلك لا نلاحظ أي تقدّم في حياة الإنسان نحو تحقيق السعادة المرجوة . فلم تذكر أية طريقة للخلاص من المعاناة، وعليه سوف نتحدث فيما بعد عن نظرية النشوء التي تفسّر سبب وجود الإنسان في الحياة، وعلى ماذا سيعتمد لعلاج الشرور في العالم ؟

(٩) التصور البوذي للإنسان، يجب التفصيل فيها من خلال المعجم الفلسفي لمراد وهبة أو جميل صليبا، لأنّ المجال لا يسمح لنا للتدليل على كل المصطلحات التي تبدو لنا متداخلة حول الموضوع.

(1)مهدي فضل الله ، المرجع السابق، ص135.

(2) المرجع نفسه، ص135.

ذ/- طبيعة النفس عند البوذية:

تتدرج النظرة الفلسفية الرئيسية للتعالم الأخلاقية الدينية للبوذية في مذهبي اللانفس (أناتا) (Anatta) والزوال (أنیکا Anicca)؛ وكل من هذين المذهبين يدعمه بدور .مبدأ النشوء المعتمد على غيره (باتيكا ساموبادا (Paticca Samuppada)، والذي وفقا له فإن كل ما هو موجود يتغير على نحو مستمر، ويعتمد على كل شيء آخر. والفارق الأساسي بين المذهبين " اللانفس " و "الزوال"، هو أنّ المذهب الأول يشير إلى لا جوهرية النفس، بينما المذهب الثاني يشير إلى لا جوهرية الأشياء في العالم⁽¹⁾.

ومن المبادئ الرئيسية:

يعتمد الدواء الذي أوصى به بوذا لعلاج شرور الحياة على تحليله لأسباب هذه الشرور فقد أوصى بالطريق النبيل ذي الشعاب الثماني؛ لأنه هو مارس الحاجة إليه لاقتلاع أسباب المعاناة من جذورها؛ ولا شك أنّ عبقرية بوذا الدينية هي التي مكّنته من تشخيص أسباب المعاناة، ووصف الدواء المناسب، ولكن كلا من اكتشاف أسباب المعاناة، ووصف الدواء الشافي؛ يعتمد على الحقيقة النبيلة الثانية ، التي تقول إنّ المعاناة لها أسبابها.

وتعتمد نظرية النشوء على :

إنّ كل ما هو كائن يعتمد على شيء آخر، وصياغة هذه النظرية هي على النحو التالي:

1- إذا كان هذا موجودا، فإنه يصبح شيئا ما.

2- من نشأة هذا ينشأ ذاك.

3- إذا لم يكن هذا كائنا، فإنه لا يصبح شيئا ما.

4- متى توقف هذا، توقف ذاك؟⁽²⁾.

نستنتج؛ أنّ البوذية اعتمدت الخيال للخلاص من المعاناة، والوصفة كانت غير فعّالة، لماذا؟

(1)جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص207.

(2)المرجع نفسه، ص 208-209

ما أساس الاعتقاد السائد بوجود ذات أو أنا ؟ هذا هو السؤال الذي يكمن في قرار التحليل البوذي للذات، الذي يتم القيام به لانتزاع الأوضاع التي تعتمد عليها المعاناة من جذورها .إن نظرية الأناتا Anatta ، تشير إلى اللا ذات أو إلى الأنا التي تتعق من المعاناة ويتم الوصول إليها بالتغلب على التعلق ب "الأنا " وعلى نحو ما قال بوذا: " من هنا أقول إن تاتاجاتا Tathagata قد حقق الخلاص، وتحرر من التعلق ، بقدر ما في كل تخيل أو إثارة ، أو تفكير متباه حول الأنا أو أي شيء يتعلق بالأنا ، وتلاشى، أو توقف ، أو تم التخلي عنه، والتنكر له"(1).

والتقسيم يتم على النحو التالي:

- أ- مكونات النشاط العقلي الأمثل في الوعي: الشعور، الإدراك الحسي، الإرادة ، الإحساس المباشر، الرغبة ، الفهم ، الذاكرة ، الانتباه ، القليل ، والتركيز.
- ب- مكونات الفضيلة: الانسان ، الشجاعة ، الاتزان ، التواضع ، التقزز من الأشياء المرفوضة، القناعة ، التسامح ، الشفقة ، والتعقل.
- ج- مكونات الرذيلة: البلادة ، الشك ، الكسل ، اللامبالاة ، الكبر ، الغضب، النفاق ، الحسد ، الغيرة ، الغش ، الخداع ، الكراهية ، التعالي"(2).

وبالطريقة نفسها نجد أنّ جميع العلوم تقترض وجود الكون كقضية مسلّمة. إلّا أنّ الفلسفة تسعى الى معرفة السبب في أنّ هناك كونا على الإطلاق-وعلى سبيل المثال: هل حقا يوجد واقع أقصى واحد ينتج جميع الأشياء؟ ولو كان الأمر هكذا؛ فما هي طبيعة هذا الواقع؟ هل هو المادة أو العقل أو شيء مختلف عن المادة والعقل؟ هل هو خير أم شر؟ ولو كان خيرا فكيف وجد الشر في العالم؟(3)

إذن؛ هناك عدة مكونات متداخلة ، تعمل الفلسفة على تفسير أسباب حدوثها في الإنسان.

(1) جون كولر، المرجع نفسه، ص214

(2) المرجع نفسه، ص222.

(3)ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ، تر/ مجاهد عبد المنعم مجاهد ،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984م. ص16.

النفس « بماهي كذلك » Suchness: دفع عدم الرضا عن النظرية التي قال بها الشخصانيون في النفس ، فلاسفة الهايانا إلى السعي للوصول إلى طرق لحل مشكلات الاستمرارية الشخصية ، والاستتارة دون طرح نظرية عن الجوهر . وبالنسبة لأشفاجوسا فإنّ « الشخص » أو البودجالا الذي قال به الشخصانيون، قد حل محله التاثاتا Tathata أو أخذ الشيء على نحو ما هو عليه . Suchness . وبالنسبة لفلاسفة الدهياميكا كان الشوفياتا Shunyate ، أو الفراغ هو الذي اضطلع بدور البودجالا؛ ومن الأهم أن نلاحظ هنا؛ أنّ أخذ الشيء على ما هو عليه، والفراغ لم يتم طرحهما كنظريات لتفسير الاستمرارية التجريبية للفرد.

والمشكلة على نحو ما يراها فلاسفة الهايانا؛ تضرب جذورها في محاولة فهم الاتصال بالفرد التجريبي، والفرد المستتير بالنفس الجاهلة، والنفس التي بلغت مرتبة النرفانا بتحقيق التنور Buddhi⁽¹⁾، وهنا تكون فكرة الخلاص عند البوذية على نحو ادراك النفس الجاهلة لحقيقة ذلك الفراغ الذي تعيش فيه دون إزالة الألم . وهذا التشخيص هو ما يمثل النظرة التشاؤمية للبوذية تجاه الإنسان نفسه، قلّسنا ندري لماذا تكتب التعاسة على بعض النفوس، كي تواجه مصيرها المحتوم.

ولا شك في أنّ تضخيم المشكلة التي خلقتها النفس الجاهلة في غمار محاولتها فهم النفس المستتيرة ؛ هو الذي دفع بالشخصاني إلى القول إنّ الشخص غير قابل للتعريف بصورة تامة . ولكن كما يشير فلاسفة الهايانا، فإنّه إذا كان هذا « الشخص » غير قابل للتعريف. اما فإنه لا ينبغي أن يسمى « شخصا » لأنّ الشخص شيء محدد ولكن وصفه على الأقل بصورة تقريبية . وإذا كانت طبيعة النفس المستتيرة تعلو على التجريبي والذهني فإنها لا يمكن أن تُسمّى بكلمة « شخص » أو بأي شيء آخر . وبتعبير آخر فإنّ النفس المستتيرة هي ما هي عليه فحسب، أنه ما من شيء يمكن أن يقال عنه ، إنه على ما هو عليه، بدلا من محاولة جعله شيئا محددا ، فإنّ من الأفضل أن يشار إليه باستخدام اللا اسم، هو كذلك Suchnes⁽²⁾.

(1) جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص 225.

(2) المرجع نفسه ، ص 226.

ر/- البوذية والعالم:

إن النظريات البوذية عن العالم والنفس لها سمات معينة مشتركة:

- 1- لا ينتمي أي من النفوس أو الأشياء الخارجية إلى طبيعة الجوهر.
- 2- كل من النفوس والأشياء تشكلها عمليات قوى العناصر.
- 3- الدوام لا وجود له سواء في الأشياء أو النفوس.
- 4- الزمان والمكان ليسا خاصيتين محددتين لأي من الأشياء أو النفوس، حيث إن الزمان والمكان نسبانيان للعمليات، التي هي بالفعل نسبية إحداها للأخرى⁽¹⁾.

لا تهتم البوذية بالبحث في ظواهر هذا الكون المترامي الأطراف؛ كما أنها لا تهتم بمعرفة أصل الوجود، وتكوينه، والغاية منه. فضلا عن أنها لا تأبه أصلا، بكل ما يتعلق بالماورائيات، ولا تهتم على الإطلاق، بالبحث فيما إذا كان العالم قديما او محدثا؛ لأن ذلك يعتبر بنظرها شيئا لا أهمية له، ومضيعة للوقت، يؤخر العمل من أجل الخلاص أو النجاة من الآلام في هذا الوجود⁽¹⁾، الذي يعج بالشقاء والشرور، نتيجة تعلق الإنسان بتحقيق رغائبه المادية، ورغبته الدائمة في الحياة.

وإن؛ فالبوذية قد لا تنكر وجود خالق للكون، وإنما لا تهتم بمعرفة ذلك الذي خلق الكون. إنها ترى أن العالم مليء بالآلام والأحزان . وهو عالم وهمي خداع، لأن كل شيء فيه وهم وسراب، فهو في صيرورة مستمرة⁽²⁾؛ دون الحصول على المطلب الحقيقي في الحياة.

وإذا كانت البوذية بهذه النظرة الفلسفية للكون، على أنه غير حقيقي، ولا يمكن الوصول فيه الى اليقين المطلق ، أي بزوال الآلام ؛ فهذا معناه أن خلق الكون لا فائدة منه، وبالتالي فالإنسان سينصب جهده في إزالة الأحزان دون توقف؛ فهل يمكن أن يُعتمد على البوذية كنظرية في التفسير لصيرورة الظواهر، بينما يتعلق الإنسان فقط بالبحث عن وجود نفسه ؟

هل يمكن اعتبار النظرة البوذية للعالم ، نظرة تقوم على معرفة الأشياء الخارجية، مثلما هي تبحث في الوجود الإنساني؟ أو هل قدم بوذا مثلا نظرية علمية حول أصل العالم ككل؟

(1)جون كولر، الفكر الشرقي القديم، ص233.

(2) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص133

إنّ الفلسفة الهندية وبخاصة الفلسفة البوذية "Bouddhisme" ترى أنّ ثمة حقائق أربعة، موجودة في العالم، وتحكم الإنسان. وعلى الإنسان أن يعرف هذه الحقائق، ومجاهد نفسه بسببها، حتى يفوز بصفاء الروح، والطمأنينة، والسعادة الخالدة. هذه الحقائق ، هي:

أ-**الحقيقة الأولى:** هي أنّ الألم موجود. فالولادة، والهرم، والشيخوخة، والموت، وفقد الأحبة، والأمراض، والفقر، والهموم، والأحزان.. كلّها مصدر للألام، وتأتي بها.

ب-**الحقيقة الثانية:** للألم أسباب، وهذه الأسباب تتمثل في الميول والرغبات والشهوات، وحب الحياة والتملك والتسلط والأنانية...الخ.

ج-**الحقيقة الثالثة:** هذه الأسباب قابلة للانتفاء. وذلك إذا كفّ الإنسان عن أن يعيش من أجل نفسه، ومحا من فكره "الأنا"، وانعدمت كل أنانية عنده، فانتهى ظمأه وحبّه للأشياء، وزالت شهواته.

د-**الحقيقة الرابعة:** الوسائل لانتفاء هذه الأسباب موجودة. وهي تكون باتباع السلوك القويم، والتحلّي بالأخلاق الفاضلة، ومنها: الصدق، والاستقامة، والعدل، والمحبة، والعطف، والمسامحة، والقناعة، والرضى، والتواضع، والزهد، وعدم الرغبة في البقاء المادي...الخ⁽¹⁾.

نلاحظ بأنّ هذه الحقائق الأربعة الموجودة في البوذية؛ ما هي إلا تعاليم أخلاقية محضة، من أجل البحث عن طريقة لتجاوز الآلام والأحزان؛ لكن ما يقال عنها، كانت فلسفة تشاؤمية، عكس ما كان ينادي به كونفشيوس لأجل الحفاظ على الكرامة الإنسانية بالصبر، ومواكبة السكينة والهدوء. والحقيقة الصادمة أنّ الفلسفة البوذية المتشائمة، نجدها قد انتشرت في الصين أكثر من الهند .

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص151.

- (1) **أناتا : Anatta** اللانفس أو اللا ذات أو اللا جوهر ؛ ومن منظور البوذية لا يوجد في الإنسان جوهر خالد دائم يسمح بالروح ، ويتم الوصول إلى ذلك بتحليل العمليات التي يتكون منها ؛ والوصول إلى أنه ليس في مكونات هذه العمليات ما هو زائد أو مجهول، ولكن أن يسمى بالنفس.
- (2) **الزوال : Anicca** اللا دوام؛ وهو بحسب البوذية صفة أساسية لكل الموجودات.
- (3) **الدوخا : Dukka** ؛ كلمة تشمل جميع المعاني المتضمنة في كلمات :الأرض، والشر والضيق أو السخط، والنقص، والداء ،أو العلة. والبوذية تؤكد أنّ الوجود الفاني يتّسم كله بالدوخا، وتسعى للوصول إلى إزالتها.
- (4) **فكشاجوتا : Vacchagota** ؛ اسم يرد في الكتابات البوذية ، مشارا إليه بأنه الرجل الذي سأل بوذا عن طبيعة النفس أو الذات.
- (5) **بودا جهوزا : Buddhaghosa** ؛ مفكر هندي ، يعتقد أنه ازدهر في القرن الرابع الميلادي، أو أوائل القرن الخامس الميلادي، في إطار البوذية الثيرافادية . واشتهر بصفة خاصة بكتابه « الطريق إلى النقاء أو الطهارة » وهو تلخيص للمذاهب البوذية الرئيسية في عصره.
- (6) **سلة أبهيدارما : Abhidharma Basket** ؛ تسمى أيضا أبهيدارما بتاكا ، وهي مجموعة النصوص الثالثة التي تشكل شريعة الثيرافادية . أي طريق القدامى أو الكبار أو الشيوخ، في بوذية جنوب شرقي آسيا، وهي مجموعة أقوال بوذا الموجهة للأتباع ولفقهاء البوذية.
- (7) **بودجالا : Pudgala** ؛ كلمة تعني أصلا طبقة أو شريحة من الشخصية⁽¹⁾.

الفصل الخامس

الفكر البابلي القديم

لمبحث الأول: حضارة بابل القديمة و مساهماتها الحضارية.

كان لحضارة وادي الرافدين، وخاصة البابلية والآشورية، منذ زمن باكر، دورها المؤثر في تاريخ البشرية؛ الديني والعلمي والاقتصادي، وكان للفلسفة الخاصة بما بين النهرين نصيب ملحوظ في تكوين الفكر العالمي.

فهذه "بابل" أحد مخازن غلال العالم الرئيسية؛ حيث كانت المحاصيل تؤتى ثمارا وفيرة، وكانت الأرض حتى بعد الحصاد الثاني تهيئ الكثير من المراعي.

وحاضرة الملك التي قامت على شواطئ الفرات، وأصبحت من فجر الألف سنة الثانية مقرا عظيما للإمبراطورية، كانت أعجوبة الأزمنة القديمة، وكان محيط دائرة السور الداخلي زهاء أربعين ميلا، يقول أرسطو -Aristote-: "إنّ بابل أمة أكثر منها مدينة" (1).

هذا يعني أنّ الحضارة البابلية، كانت من حضارات الشرق القديم، الذي يمثّل مرحلة من مراحل التفكير الإنساني في بعده الثقافي والاجتماعي والديني والسياسي؛ حيث لا يمكن انكار مساهماته (الفكر الشرقي القديم)، ومن هنا؛ كان للحضارة البابلية القديمة نصيب من التأثير في الفكر البشري بصفة عامة، كما سوف نوضحه فيما يلي:

لقد أدّى امتداد سلطان الإمبراطورية، وسيادتها التجارية في آسيا الغربية، الى انتشار ثقافتها على مساحة أعظم، وأهمّ ما جاءت به حضارة بابل، اللغة؛ وهي غنية وأكثر مرونة وأقوى على التعبير عن المجردات، والى جانب التقدم اللغوي سار تقدّم الكتابة؛ فقد ساهم البابليون في تحويل الحروف الهيروغليفية السوميرية الى الشكل البابلي أولا، ثمّ الآشوري ثانيا. كما أنّ كتاب الحضارة الجديدة المختلطة عرفوا فصل الكلمات الى مقاطع، والوصول الى الأصوات البسيطة للحروف المتحرّكة المعروفة (2). وهذا ما يعني لنا، بأنّ الحضور الثقافي والفكري لهذه الحضارة، كان على درجة عالية من الوعي، من خلال مساهماتها في تطور الكتابة المسمارية التي عرفت بها؛ فهي أول حضارة تعرف الكتابة، ومن ثمّة كتابة القانون على الجدارية.

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص185.

(2) المرجع نفسه، ص186.

ومن خصائص الحضارة البابلية كذلك؛ أنّ شعبها كان من الزراعة والتجار، وكان للدين أجل قدر في أوضاعهم العامة، أمّا الآشوريون فعلى النقيض؛ كانوا منذ البداية الى النهاية سلالة حرب، وكان ملوكهم قادة تحت أمرتهم أشرف عسكريون، ولمّا كانوا أكثر شعوب الشرق الأخرى غلظة وقسوة، فإنّ تاريخهم هو سجلّ حروب وغزوات، وما اكتسبوه من ثقافة استعاروه من بابل، وكان النقدّم الوحيد الذي حققوه، هو البناء بالحجر، كما كانوا يبنون بالأجر، وتسجّل الثيران المجنّحة الضخام والألواح المنقوشة في المتحف البريطاني قصة متواصلة عن الحروب الوحشية⁽¹⁾ التي كانت تعيشها في تلك الفترة؛ من أجل توطيد الحكم، وجلب الاستقرار. وهذا يدل على ميزة خاصة في التفكير الشرقي القديم، سيما عند البابليين، على أنّ دعائم الحكم والسياسة كانت تقوم على القوة، نظرا لوجود تنافس محموم بين الحضارات التي كانت موجودة في شكل صراع يكاد لا ينتهي، سواء مع الخارج أو وفق الانقلابات الداخلية.

ومن المعلوم؛ أنّ الحضارة البابلية المعروفة ببلاد وادي الرافدين، تدل على حساسية الموقع الجغرافي الذي تحتله المنطقة في كل الاتجاهات، وعلى جميع الأصعدة؛ كانت محل أطماع الخارج والداخل، وتداخل المصالح والمنافع، حيث كانت الأهمية الكبرى في ترسيخ فكرة القوة والسيطرة المحكمة من أجل بناء حضارة مرموقة، لها التأثير الكبير في جوانب عدة، وبطرق عدة.

وكانت طريقة الآشوريين (مثلا) التي اتبعوها للبحث عن هذه السيطرة، هي طريقة عبادة القوة الوحشية المنظمة، ذبح المهزومين، وسبي شعوب بأسرها، وإفناء ملوك محترمين لدى أعدائهم في مقابرهم، ومصادرة الآلهة؛ فقد تميّز الآشوريون بوحشيتهم الباردة التي كانت تجرى بحساب معلوم، وتختلف كلّ الاختلاف عن وحشية الرجل غير المتمدين.... وكان الآشوريون يخلصون في تعصب لدينهم، وكانت جميع انتصاراتهم باسم إلههم " آشور " ولمجده،...وقد أسّسوا الدين على مبادئ الاخلاص والخوف⁽²⁾؛ فاللههم (آشور) الذي أسقط (ماردوك) عن عرشه، لم يطلق عليه اسم

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة ، سنة 2001م، ص186.

(2) المرجع نفسه، ص187. بتصرف.

العطف إلا بقصد استمالته وتخفيف ظلمه... فالمثل الأعلى عند الآشوريين هو "المتوحش والمولع بالحروب"، في حين كان عند البابليين "الأخلاقي الإنساني الأبوي الصبغة"⁽¹⁾.

وهذه النظرة المتعالية لفكرة التفوق في حضارة ما بين النهرين؛ أي التي تنظر الى القوة كمبدأ أخلاقي وإنساني تارة، والى الغطرسة والخوف تارة أخرى؛ توحى لنا الى مدى حرص الإنسان في الفكر الشرقي القديم عامة، والبابلي خاصة؛ على ضمان الأمن والبقاء والحفاظ على الذات من التلاشي والفناء، والتفكير في فكرة الخلود والسعي لتحقيق السعادة الدائمة، بحكم احتكاكهم مع مصادر الموت، التي هي الحروب؛ وبالتالي لم يخش الموت الإنسان البابلي القديم، بقدر ما كان يخش فقدان النزعة الروحية في المقاومة ضد أي عدوان خارجي.

وهكذا نستنتج؛ بأن الحضارة البابلية كانت تهتم بالجانب العسكري أكثر من أي جانب آخر في الحياة؛ لذلك تولدت لديها عاطفة القوة التي تحمي بها كيائها من أي عدوان خارجي، وتضمن لها حياة الاستقرار بدافع الخوف الذي تلقيه في قلب الأعداء. لكن هذا لا يمنع من وجود الجانب الأخلاقي والديني والسياسي والاجتماعي والعلمي في هذه الحضارة العريقة.

مثلاً؛ فقد كانت لها نظرية الحكم الإلهي والتي لا تعني بالضرورة، نظام حكم تيوقراطي ديكتاتوري، وإنما تعني لدى البعض مثلاً... نظام حكم عادلاً وإنسانياً. مع الإشارة إلى أنّ الملك في بلاد ما بين النهرين، كان يسمّى: لوغال - Lugal ؛ أي: الرجل العظيم الذي يحكم بالنيابة عن الشعب؛ كما كان يُسمّى كذلك: "أنسي-Ensi" الذي يحكم بأمر الله؛ لأنّه مُعَيّن من قبل الله. واستناداً الى ملحمة جلجاميش، فإنّ الملك كان يستشير الأعيان، ومجلس الشعب الذي يتألف من جميع الذكور الأحرار، قبل أن يقرّر بعض الأمور الهامة، كالحرب مثلاً⁽²⁾. وهذا دليل على أنّ الفكر السياسي لدى الإنسان البابلي القديم لم يكن وليد حروب وفوضى، وإنما يسير وفق نظرية منظمة في إدارة أساليب الحكم عن طريق اصدار قوانين ومراسيم يلتزم بها الجميع.

(1) المرجع نفسه، ص187. بتصرف.

(2) مهدي فضل الله، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص109.

كما يفسّر النجاح -عند العراقي القديم- بأنه قوة خارجية تتغلغل في أفعال الفرد، وتتيح له انتاج النتائج؛ فالنتائج لا تصدر عن قدرة الإنسان نفسه، لأنه أضعف من أن يؤثر على مجرى الكون تأثيراً يُذكر، ولا يقوى على ذلك إلاّ الإله. ولذلك إذا حققت الاشياء ما كان يأمله الفرد، بل فاقت كل ما يأمل؛ فلا ريب في أنّ إلهًا ما قد اهتم به وبأفعاله وأتاه بالنجاح؛ فهو على حد قول سكان ما بين النهرين، " قد حصل على إله ". واعتقادهم بأن الإله الشخصي هو القوة الكامنة وراء فلاح الإنسان ظاهر بوضوح في أقوال مثل: " ليس بمقدور الإنسان، بلا إله (شخصي)"⁽¹⁾.

ولذلك يعبد المرء، ويطيع هذا الإله الشخصي قبل غيره، وفي كل مكان للإله الشخصي، حيث يصلّي ربّ الدّار ويأتي بالقرابين كلّ يوم... وعلى الإنسان أن يسبح بعظمة إلهه....وعلى الشاب أن يطيع بكلّ جواره أمر إلهه"⁽²⁾.

وهذه دلالة واضحة؛ على أنّ إنسان الفكر الشرقي القديم، بما في ذلك الإنسان البابلي، كان متشبهاً بالتعاليم الدينية، وأنه شخص متدين، وهو ملتزم بالطاعة والخضوع في العبادة من أجل احراز النجاح في الحياة، ويدرك تماماً مدى الطاعة لحاكمه وللأسرة التي ينتمي إليها.

إنّ أية حضارة لا تملك الجانب الروحي مقابل الجانب المادي، لا تسمى حضارة، ولا يمكن بناء كيان ثقافي لها؛ فهي مهددة بالزوال، وعليه نستنتج بأن حضارات الشرقي القديم كما أسلفنا الذكر مع الحضارة المصرية والصينية والهندية، كلّها قامت على الوازع الروحي والديني والنفسي، قبل تشييد أركان نظامها السياسي والاجتماعي والاقتصادي وغيرها. وهذا هو حال الحضارة البابلية التي هي الأخرى تملك كلّ شروط الحياة، وإن كانت تلامس في ذلك نسيج الأساطير في نشأة هذا العالم.

ولسنا ندري؛ كيف يمكن انكار تلك الاسهامات العلمية التي كانت حاضرة في ثقافة الإنسان البابلي القديم، والمفعمة بالنشاط العلمي المكثف حول دراسة الوجود ككل، من باب تصديق بعض الأساطير التي حامت حول تفسير ما يجري حول الإنسان وأوضاعه العامة ؟

(1)نقلا عن: جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم(وبدايات التأمل الفلسفي)، ص197. (راجع بالتفصيل :ما قبل الفلسفة، ص241، وأيضا: , Genouillac(H ;de),Tablettes Sumeriennes,arcaique,Paris,1909

(2)المرجع نفسه، ص197.بتصرف.

أي: هل كانت تلك الاكتشافات العلمية محل الصدفة ؟ وهل كان نشاطه العلمي مجرد تأملات في الوجود، والبحث في أصل الكون مجرد خرافات ممزوجة بالأباطيل والتي لا تستند الى أي دليل علمي مؤكد ؟ ثم هل من دليل مادي على حقائق علمية وصل اليها العالم البابلي في زمن كان مليء بالحروب والتوترات والفوضى ؟ وأخيرا: هل كانت هناك تفكير فلسفي علمي عند البابليين القدامى؟

نقول في حدود علمنا؛ أنه في بلاد الرافدين كانت الأساطير لديهم تتفق في جعل الماء أساس الحياة، وإنه أصل الكائنات الحيّة، وهي تتوافق مع الأساطير المصرية في جعل آلهتهم أصل الخلق ونشأة الكون، وهم في ذلك يبحثون مثل المصريين القدماء عن ظاهرة الأصل الأول التي وجد منها الكون، ونبتت منها شجرة الحياة⁽¹⁾. وهذا دليل على وجود التفكير الفلسفي منذ اللحظة الأولى للإنسان في الشرق القديم، بحكم تفكيره في أصل الوجود الخارجي الذي يعيش فيه، حيث كان يفسر الظواهر الطبيعية وفق الحركة التي تظهر أمامه من الموجودات حينها؛ لكننا نريد الأجابة عن ذلك التفسير من خلال تواجد الفلاسفة آنذاك (إن وجدوا على خلاف فلاسفة اليونان مثلا). وهذه النقطة هي التي تثير الشك في عدم وجود فلاسفة أو كتب تدوّن النشاطات العلمية أو الدراسات الفلسفية التي تعبّر عن وجود تفكير فلسفي إنساني أصيل، بعيد عن التفسيرات الخرافية حول أصل الكون والإنسان في حضارة بابل القديمة.

هذا؛ و تعدّ الأساطير السومرية أول الأساطير التي عرفت في بلاد الرافدين، كما أنّها تُعد أيضا أصل الأساطير التي ناقشت مسألة الخلق والتكوين للحياة البشرية، ومن ثمّ فقد انتهجت أساطير المجتمعات اللاحقة؛ كالكلدانيين والبابليين والأشوريين الأصل السومري في تفسير مسألة الخلق الأولى⁽²⁾ وكيفية انبثاقها. بمعنى: ما مصدر تلك التفسيرات الأسطورية حول أصل الحياة البشرية؟ ثم كيف وصلت الى الحضارة البابلية ؟

(1) سليم، احمد امين، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، القاهرة، ص 148.

(2) المرجع نفسه، ص148. بتصرف.

تذكر الأسطورة السومرية انه في البدء كانت الآلهة "نمو" (ولا أحد قد وجد معها)... (وهي تمثل المياه الأولى التي نشأ عنها كل شيء)⁽¹⁾.

والمعنى هنا؛ يتقارب مع تفسيرات أصل الكون في الحضارات المجاورة للبابليين، خاصة الحضارة المصرية؛ والتي ستنقل تأثيراتها الى الحضارة اليونانية مع الفلاسفة الطبيعيين الأوئل؛ بحيث يتم تفسير كل شيء من منطلق أصل الخلق من علة واحدة، ثم تتفرع عنها نشأة باقي الأشياء الأخرى. وكأننا امام علة أولى وتليها باقي العلل الأخرى، أو ما يعرف عند أرسطو بعلم العلل الأولى. لكن عند التفسير البابلي القديم الأمر يختلف في تفسير عملية الخلق الممزوجة بالأساطير التي لا يكاد العقل استيعابها .

لم تختلف الأساطير الأكادية عن السومرية في أنّ الأصل كان الآلهة "نمو" ، ثم خلقت العالم البشري بعد ذلك. بينما تذكر الأسطورة البابلية: أنّه في البدء أو في الأزمان الأولى، لم يكن سوى المياه والضباب؛ حين لم تكن السماء العلى قد سميت بعد، ولم يكن للأرض من تحتها اسم، اختلطت الأمواه من "إيسو الأول" أبيهم، ومن تيامات الصاخبة أم الجميع فصارت واحداً⁽²⁾. وهذه النظرة لنشأة الكون ناتجة عن الأساطير القديمة، عن المصريين الأوائل، وهي تتحدث عن نظرية الوجود التي تخلق من الوحدة تأتي الكثرة، أو بداية الخلق من الآلهة التي خلقت العالم البشري من مادة معينة، مثل ما هو حال تفاسير فلاسفة الطبيعة الأوائل اليونان، أي تشبه النظرية الذرية عند ديمقريطس، أو من عناصر الطبيعة المعروفة، خاصة نشأة العالم من الماء، ومن امتزاجه مع باقي العناصر الطبيعية، وجدت حياة التجاذب والتنافر بين الكائنات، منها : الإنسان. وهذا التفسير؛ منبعه تفكير الإنسان بالأشياء المحيطة به، تفسيراً مادياً بعضه يميل الى الأسطورة أكثر مما هو علمي. وهكذا بدأ تفكير الإنسان في القوانين التي تعمل بها هذه الأشياء، والعلاقة التي تربط بينها.

(1) المرجع نفسه، ص148. بتصرف.

(2) باقر، طه، المقدمة في ادب العراق القديم، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة ، 2004 م، ص69.

وأشهر ما احتفظ لنا التاريخ به من هذه القوانين؛ هو قانون "حامورابي" الذي يرجع تاريخه الى القرن الثالث والعشرين قبل المسيح، وهو قانون جد مكتوبا على الصخر، في نحو أربعة آلاف سطر، وهو مؤلف من نحو ثلاثمائة مادة؛ جمعت أهم نواحي الحياة الاجتماعية المعروفة في ذلك العهد. وهو متفق تمام الاتفاق مع حاجات الأمة التي نشأ فيها . ولهذا نال من نفوس العلماء المحدثين مكانة عظيمة⁽¹⁾. حيث كشفت عن عناية كبيرة به في تأصيل القوانين الاجتماعية والسياسية التي تنظم المجتمعات، ممّا يدلّ على وجود نظام سياسي كان يحكمها، وأيضا؛ يعبر عن وجود وعي سياسي تنظيمي داخل المجتمعات الشرقية القديمة، انخرطت في منظومة من القوانين تحكم الحياة بأسرها. وعليه نستنتج مرة أخرى أنّ القانون السياسي في حضارة بابل القديمة، سبقت القانون الأخلاقي عند اليونان، من منطلق قانون الطاعة والخضوع للفرد داخل مجتمعه ودولته، مما يؤكّد وجود حياة مستقرة وآمنة بين الناس، وأن هناك نظرة جديدة للحياة، تقوم على العلم والنظام والقانون. ومثال ذلك ؛ لمّا كان السّحر ذائعا في تلك البلاد (ما بين الرافدين)؛... فقد نصّت إحدى مواد هذا القانون على عقوبة من يستعمل السّحر في الأذى أو في ارتكاب الجرائم⁽²⁾. وهو قانون متفق عليه، وملتزم به كلّ أطراف المجتمع، لأن القانون كان فوق الجميع. ولأنها سنة الحياة تقضي بين الناس من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية، ما دام الفرد ملتزم بقانون الطاعة الهادئ والخوف من العواقب، بوعي واضح. ممّا يفسّر قوة الدولة آنذاك، واطمئنان الناس إليها في أعمالهم، ونيل حقوقهم مثملا هو قيامهم بواجبهم المقدّس .

أمّا العقوبات التي فرضها على بعض الجانين؛ فقد بلغت في كثير من الأحيان حدّ القسوة والوحشية، ومثال ذلك: أنّه نصّ على وجوب قطع ثدي المرأة التي تتعهّد بإرضاع طفل ثم تهمله، حتى يموت جوعا. وأنّ صاحبة المشرب التي لا تلبه رجال الحفظ على القبض على السكّيرين تعاقب بالإعدام، لذلك تظهر عبقرية التفكير البابلي في تنظيم الشؤون الاجتماعية، خاصة تنظيم شؤون الأسرة والاهتمام برعاية الفرد منذ الطفولة، مع تشديد العقوبة القاسية عند الإهمال، وهكذا.

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص328.

(2) المرجع نفسه، ص328.

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام أنّ "حامورابي-Hammurabi"؛ قد فصل هذا القانون عن الدين فصلا تاما، وأنّ كلمة الدين لم تُذكر إلّا في المقدمة التي سبقت هذا القانون والخاتمة التي تلتها. وقد جاء ذكرها بمثابة انذار للشعب بأنّ هذا القانون، هو من عند الإله. وأنّ من لا يذعن له، سيلاقي أشدّ العقاب⁽¹⁾.

نفهم من هذا المعنى؛ وجود قانون وضعي ينظم حياة الناس جميعا، الى جانب وجود نظرية التقويض الإلهي له، على أنه أمر من عند الله؛ وهذا يعبر عن ارتباط الحياة الاجتماعية في حضارة بابل القديمة بالدين، كذلك. وأنّ القانون هو جزء من الأوامر الإلهية، التي تتطلب الطاعة والاذعان لها، مثلما هي أوامر الملوك التي تطلب الطاعة من الرعية. ولكي تكون الحياة هادئة يقتضي الحال تنفيذ تلك القوانين، والتذكير بالعواقب الناتجة عن التمرد والعصيان. وهذا الحال؛ من صميم تفكير الإنسان الشرقي القديم في كل الحضارات التي تناولناها في هذه المطبوعة، حتى نبين للقارئ بأنّ التفكير الشرقي القديم لا يخلو من التخطيط والانسجام في العلاقات العامة بين البشر، وأنه ثمة حياة بسيطة وعادية تعيشها المجتمعات من أجل تحقيق الاستقرار والسعادة، والعيش بكرامة.

وكذلك؛ لا تخلو المجتمعات الشرقية القديمة من التفكير العلمي الصحيح؛ إذ لكل حضارة اكتشافاتها ومزايا في جانب من جوانب العلم، وإن كانت موصوفة بالخرافة والأساطير، بل كانت هناك اجتهادات واختراعات وفنون، لا تزال ظاهرة الى يومنا هذا.

والدليل على ذلك؛ قد تكون الأرصاء البابلية؛ من أول الأرصاء المدونة في تاريخ الإنسان قبل إنشاء مرصد (كرنيش) 1750م. لقد استفاد منها جل المفكرين الذين درسوا في بابل⁽²⁾، وعن علوم الطب والفيزياء والكيمياء والفنون الجميلة ومكانتها عند العراقي القديم؛ فقد ابتعد العراقي القديم عن السحر والشعوذة، والتزم منهج البحث العلمي، والتشخيص بواسطة طرق علمية متقدمة⁽³⁾. كما

(1) محمد غلاب، المرجع السابق، ص328.

(2) جورج سارتون، العلم القديم والمدينة الحديثة، تر/ عبد الحميد صبرى، طبعة القاهرة، 1960م، ص97.

(3) راجع بالتفصيل: أمانة صبري مراد، لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة، 1966م، وكذلك د/عبد اللطيف البديري، الطب الآشوري، بغداد، 1976م، وله أيضا الطب الأكدي، بغداد، 1976م، راجع أيضا: ليفي مارتن، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، تر/ فياض المياحي وآخرون، بغداد، 1980م.

عرف أبحاثاً في الطبيعة، وكانت له ابداعاته في العلوم العلمية والفنون المختلفة والصناعات المتنوعة، المعتمدة على معرفة دقيقة بالكيمياء وخواص العناصر؛ وبخاصة تلك التي تتصل بالصباغة والزخرفة والألوان⁽¹⁾، إضافة الى ذلك؛ يقدّم تاريخ التراث العلمي العراقي، العديد من العلماء الذين تنوّعت اختصاصاتهم من الذين استخدموا الاستقراء المقترن بالملاحظة والتجربة في استنتاجاتهم المختلفة⁽²⁾، أثناء بحثهم عن الحقيقة العلمية؛ وعليه، يكون المنهج العلمي المعتمد، هو التأمل ثم التجريب، مثلما هو ماثل امامنا في المناهج العلمية الحديثة. لأجل ذلك؛ لا يمكن الحكم على التفكير القديم على أنّه تفكير أسطوري، بعيد عن المبادئ العقلية أو اليقين، وإنما كانت هناك محاولات للعلماء لمعرفة القوانين العلمية، التي تحكم بعض العناصر المدروسة، والأمثلة كثيرة .

ولم تخل منجزات العراقي القديم الفنية من مسحة التأثير بالمعتقدات الدينية، وخصوصاً فكرة مزج عناصر من حيوانات مختلفة في شكل مركب⁽³⁾. كما احتلت الموسيقى في فنونه موقعا متقدّما. واحتلت الصناعات أهمية كبيرة من ناحية التجارة بها، وربط التعاملات بين المناطق المجاورة والبعيدة، في شكل اتصال بالمادة المدروسة، أيّ كل شيء لاقى الاهتمام الكبير لدى الإنسان في حضارة بلاد الرافدين، فازدهرت الحياة العلمية فيها، الى درجة تأثيرها على الحياة العامة. وهذا عكس ما كان يروّج له، على أنّ الإنسان في الفكر الشرقي القديم، لم يهتم كثيرا بشؤونه الخاصة، وما يحيطه من مسائل علمية ؛ بل كان العالم المجتهد يبحث في ظواهر الكون، ويترجمها الى كتابات، تارة على الحيطان أو النقش على الحجر، وتارة في شكل آلات وأدوات، كدليل مادي على حرص الإنسان الشرقي في تطوير قدراته العقلية في معرفة حقائق الأشياء بكل صدق ، وتغاني في العمل.

(1) راجع: د/وليد الجادر، بحث عن الأصداف، منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 23، سنة 1978م، ص581-594.

(2) جورج سارتون، تاريخ العلم، ج1، ص 342، 345، 361.

(3) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، 1985م، ص33.

المبحث الثاني: الأخلاق في الحضارة البابلية .

تُحدّثنا النصوص القليلة الباقية؛ أنّ عدداً غير يسير من خاصة الكلدانيين، قد سموا في الأخلاق الى منزلة الحكماء، وكتبوا فيها كتباً قيّمة، عثر الباحثون على أحدها، وهو كتاب ضخم، عنوانه: "كتاب الحكمة"؛ ومما جاء فيه من العظات الأخلاقية ما يلي :

" لا تقدّم شراً الى خصمك، وأحسن إلى من أساء إليك، و لا تتزوّج التي لها عشاق. إنّ الرجل الحكيم هو الذي يتظاهر بأنّه يعرف أقلّ ممّا يعرف في الحقيقة. إنّ الخوف من الإله يجلب الرضاء، وإنّ التضحية تطيل الحياة. وإنّ الصلاة تنقذ من الآثام"⁽¹⁾.

إنّ هذا القول؛ يعبر عن الطاعة كجوهر الحياة الفاضلة؛ ومثلما نصح الحكماء بمواعظهم الأخلاقية، تعني باختيار الطريقة المثلى في هذه الحياة. والرجل الحكيم من قام بتطبيقها بوعي منه على أنّه يسلك الطريق الصحيح لتجنّب الشرّ، وطلب الرضا والنجاة من الآثام.

لقد آمن إنسان وادي الرافدين، بأنّ كلّ ما في الكون يسير حسب "خطط" إلهية تستند على قواعد ونواميس مقرّرة؛ "وما على الإنسان إلّا أن ينقاد لها طائعا مختارا ؛ لأنّ الآلهة استهدفت من ورائها خير الإنسان وعدالته، كما استهدفت تسيير الكون دونما اضطراب أو خلل فوضعت له نظاما دقيقا عادلا من أجل الحفاظ على التوازن والانسجام الكلي فيه، ما على الفاضل إلّا طاعته"⁽²⁾.

واحتلت فضيلة "الطاعة" الواعية موقعا مهما في الأخلاق الرافدية، تعضدها مفاهيم خلقية ظهرت في مجرى التطوّر اللاحق لمدارك ووعي الإنسان الرافدي، أهمها: "فضيلة الإنسجام والتوافق". والحياة الفاضلة هي الحياة المطيعة، والعصر الذهبي هو عصر الطاعة، حيث تتدرج فيه هذه الفضيلة من دائرة الأسرة، فالمجتمع فالدولة والنظام، وفق سلطة موجّهة؛ إذ يستحيل في عُرف العراقيين القدماء وجود عالم منظم دون سلطة تكون دائما على حق؛ لأنّها تطبق "القانون العام" و "النظام الإلهي"⁽³⁾، وعلامة التنظيم في حياة الفرد هي الطاعة والتخطيط للمستقبل من أجل حياة

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص327.

(2) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص195.

(3) المرجع نفسه، ص195.

أفضل، ومركب الطاعة والتخيط، هو الصحة والعمر الطويل والمركز المرموق، والأبناء الكثر، والمال ⁽¹⁾؛ وغيرها من زخارف الحياة التي يرتضيها الفرد لنفسه، بشرط أن لا يلحق الأذى بالآخرين، ويسعى لكسب الرضا، والعيش بكرامة. وهنا نرى التقارب والتوافق بين الناس في الحضارات الشرقية القديمة، إذ تعتمد على التعاليم الأخلاقية التي تهذب سلوكهم، قصد فرض الاحترام، مثلما رأينا مع الأخلاق المصرية والصينية والهندية، وكلها تصب في وعاء واحد.

أ/- أخلاق الطاعة ومصير الإنسان:

لم يكن الشعب في حضارة بابل القديمة يرى فناء الروح بمجرد الموت، ولكنه كان يعتقد أن مصير الانسان كان محصورا في هذه الحياة ، وأن جميع الموتى أشقياء.. أما استثناء الذين قتلوا في الحرب، فهو شيء غامض لا يتضح منه رأيهم الحقيقي، ولكن المحقق الذي لا ريب فيه، هو أن سرور الانسان وسعادته، أو حزنه وشقائه في هذه الحياة هو كل شيء، ولا اعتبار لما وراءه ⁽²⁾.

ما الذي كان الإنسان يرجوه من خير بتمسكه بحياة الفضيلة التي تمثل الطاعة-للأسرة والحكام والآلهة- جوهرها، إن الإجابة على ذلك تتفق ونظرة البابلي القديم الى الدنيا، وتتفق ومنزلة الانسان في الدولة التي يسيطر عليها الآلهة؛ فالانسان قد خلق ليكون عبدا للآلهة، إنه خادمهم، وللخادم المجتهد المطيع أن يلجأ الى سيده في طلب الحماية، وأن يتوقع الترقية والمكافأة منه، أما الخادم الكسول اللامطيع، فلا أمل له في شيء من ذلك؛ فطريق الطاعة والخدمة والعبادة، هي طريق التمتع بالحماية ⁽³⁾. وما طاعة المرء للأفراد الذين يكبرونه سنًا في العائلة إلا البداية، ف وراء العائلة دوائر أخرى وسلطات أخرى: الدولة والمجتمع؛ فثمة المراقب حيث يعمل المرء، وثمة المشرف على الأعمال الزراعية التي يشترك فيها المرء. وثمة الملك، وكلهم يُطالب بالطاعة المطلقة. والعراقي القديم ينظر الى الجمهور الذي لا قائد له، نظرة الأستياء والشفقة-ونظرة الخوف أيضا. والجنود بلا ملك غنم بغير راعيها ⁽⁴⁾. وكل هذه الأمثال عبارة عن معاني، كانت مثالا فعليا لتفكير الإنسان،

(1) جمال المرزوقي، المرجع نفسه، ص195.

(2) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص326.

(3) جمال المرزوقي، المرجع نفسه، ص198.

(4) المرجع نفسه، ص196.

ب/-ملحمة جلجاميش " ومشكلة الحياة والموت:

في الأساطير السومرية القديمة؛ أنّ جلجاميش (بطل آشوري: رمز القوة والبطش)، الذي انتابه الفزع لدى رؤية صديقه " أنكي دو " يموت، ارتحل يطلب المعرفة التي تتجيه من هذا المصير، وتضمن له السعادة والخلود. وفي أثناء ترحاله يلتقي " سيدوري "، التي تنصحه بالتوقف عن السعي في مطلبه؛ لأنّ الخلود وقف على الآلهة دون الناس؛ وبالتالي ، فالخلود بالنسبة إليه مستحيل⁽¹⁾. وليس له إلا أن يعيش حياته كما ينبغي أن تُعاش، وذلك بالأخذ بأسباب المسرات المادية. يا جلجاميش ! لماذا تجري هكذا ؟ إنك لن تدرك الحياة التي تسعى إليها أبدا. فآلهة الحب قد خلقت الفنانين. كتبت عليهم الموت. أمّا الحياة فقد ادخرتها في أيديها.

يا جلجاميش ! فلتشبع بطنك، ولتبتهج طوال الليل والنهار. ولنشر كل يوم تقضيه حولك البهجة والغبطة، ولترقص آناء الليل وأطراف النهار. ولتعزف لك الأنغام على مزمار الغاب. لتكن ثيابك نظيفة ورأسك مغسولا. ولتستحم في الماء. وليحدك العطف على الصغير الذي يمسك بيدك. ولتكن زوجك بالمثل قرة عين لك. فهذا زخر الإنسان⁽²⁾.

وإن كانت تعبّر هذه الأسطورة، كما يُطلق عليها تارة، وملحمة تارة أخرى، وبين الحقيقة والخيال لهذه القصة التي تعبّر عن الطموح المتزايد في الإنسان، والذي يقبل أحيانا العيش في حياة متناقضة ومتصارعة من جهة، ومن جهة أخرى، يحاول أن يعيش مسالما طالبا الرضا والهدوء والسكينة. المهم في الفكر البابلي القديم هناك معاني في هذه القصة، وهي الاهتمام بالإنسان أولا، ثم العالم ثانيا. كما يُروى عن اليونان على أنهم أول من أنزلوا الفلسفة من السماء الى الأرض، لكن تفكير حكماء بابل كانوا السابقين للاهتمام بمصير الإنسان في الدنيا، من خلال اسداء النصح للشباب على وجه التحديد، نظرا لتشبّعهم بالحيوية، وبحثهم الدائم عن الابتهاج والسرور وتحقيق الأحلام. والأخذ بمسرات الحياة المادية بنهم كبير. لذلك عرف التفكير الأخلاقي البابلي كيف يوجّه النصح للشباب خاصة، ممّا يمكنهم من مواجهة الأهوال، والخروج من المعاناة والآلام، وإدراك حقيقة الموت والفناء.

(1) مهدي فضل الله ، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص147.

(2) المرجع نفسه، ص148.

تمتاز هذه الأسطورة عن الأساطير السابقة؛ بأنها صيغت في قصيدة شعرية حماسية طويلة، وقد احتوت على تاريخ (جلجاميش) ملك " أوروك "، وهو بطل عظيم، ثلثه بشري، وثلثاه إلهيان. وكان له صديق حكيم يدعى " أنكي دو "؛ فاتحادهما على مقاتلة ملك "إيلام"، جارهما وخصمهما اللدود؛ وقد تمّ لهما ما أراداه من التغلب على هذا الملك، فلما شاهدت الإلهة " إيش تار " شجاعة "جلجاميش - Gilgamesh"؛ هوت في حبال غرامه، وطلبت إليه أن يتزوج منها، ولكن هذا الملك كان أعقل من أن يندفع بحيل هذه الإلهة التي كان يعلم أنه ليس على وجه الأرض أشقى من عشاقها. كما كان قد أحاط بما حدث لـ "تاموز" على يديها، فرفض سؤالها في قوة وحزم. وعند ذلك أحست الإلهة بالاهانة التي لحقتها من هذا الرفض، فحنقت على الملك حنقا شديدا. وفي الحال سلّطت عليه ثورا متوحشا. غير أنّ صديقه الحكيم بادر الى قتل الثور قبل أن يتمكن من إيذاء الملك" (1).

ولنا أن نعقب على هذه الأسطورة؛ إذا كانت كذلك، فنقول بأنها تتشابه مع الأساطير المصرية والصينية والهندية، من منظور التمثيل بالحيوانات (كالثور، والبقر، والنسر، والحصان، والأفعى وغيرها، والتمثيل بالأشجار بأنواعها)، بل بعضها تمّ عبادتها. وذهب تفكير آخر الى تأليه الإنسان نفسه، بادعاء أنّ البعض متحد بالآلهة، ودخلوا في خيالات معقدة (فكرة التزاوج بين البشر والآلهة). وهذه التفسيرات الأسطورية، كانت ناتجة عن عجز العقل عن إيجاد علة حدوث الأشياء. ولما كان ذلك العجز واقع بهم؛ لجأ البعض إلى تعظيم بعض الروايات بسرد خرافي يفتقر الى الموضوعية. وهذا هو حال الرواية الأسطورية عن حالة شباب كان يعيشها شاب مثل : جلجاميش، والذي نريد معرفة المغزى من قصته البطولية التي تجاوزت الواقع الحسي الى درجة كبيرة من التصديق بخوارق لا قبل له بها. فماذا نستفيد من هذه القصة إن كانت مليئة بالخرافات أو الخيالات، التي يعجز العقل عن تقبل حدوثها ؟ هل تكون هذه القصة مجرد رواية للتسلية ؟ وما هي العبرة التي نستنتجها منها ؟ وما موضعها بين باقي الأساطير القديمة ؟ هل هي دليل كافي عن عزل التفكير في الفكر الشرقي القديم عن الحقيقة العلمية ؟

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص323.

لم يكد "جيلجاميش" يرى روح صديقه "أنكيديو" حتى عاجلها بهذا السؤال العويص المعقد، وهو: "ما هي الحياة في العالم الآخر؟" ولكن روح هذا الصديق لم تجب على هذا السؤال، بل أجهشت بالبكاء وتركت الملك يفهم أنّ الموتى في منتهى السوء، إذ أنّهم جميعا لا يكادون يوجدون، وأنّ هذا الوجود الضئيل الباقي لهم هو مسجون في ظلام حالك، وأنّ الجوع والعطش يكادان يلتهمان هذه الكينونة التي هي الى الخيال أقرب منها الى الحقيقة، ولا يستثنى من هذه الحالة التعسة إلاّ الذين قتلوا في المعارك الحربية⁽¹⁾.

من هذه القصة التاريخية؛ نستخلص الفوائد والعبر والمواعظ التي كانت في حضارة بابل القديمة، والتي تمثّل أحد أهم الحضارات في الشرق القديم، وهي حضارة بابل موطن القانون والسياسات والتخطيط، والاختراع والتشييد. حيث يستحيل انكار مساهماتها عبر التاريخ الانساني. وإن كانت الروايات تشير الى أنّ التفكير الفلسفي الهادف كان موجودا وبقوة، من خلال دراسة الوجود الإنساني، وما ترتّب عنه من نظريات حول الحياة والموت، والخلود والفناء، ومعرفة أحوال النفس. المهم في هذه القصة؛ ملحمة يعيشها الإنسان في حضارة بابل العريقة، بين الشقاء والتعاسة، والسعادة والهدوء والفضيلة. وكأنها تشبه الفلسفة الأخلاقية عند كونفوشيوس وبوذا وبتاح الحكيم وزرادشت. وكما قلنا بأنّ تفكير الشرق القديم، ينظر الى الوجود الإنساني كأولوية قصوى للوصول الى الحقيقة المطلقة، كفلسفة عملية مستمدة من الواقع المعيش، أي كان الفكر الشرقي القديم بدافع الحاجة العملية لإيجاد قواعد أخلاقية تنظم الفرد داخل الأسرة والمجتمع والدولة.

وكما لاحظنا ذلك في نصائح الحكماء، مثل: بتاح المصري أو كونفوشيوس أو بوذا أو زرادشت. فالكلّ واجه الحياة اليومية بواقعية من منطلق تأمل عميق الى درجة كبيرة من التعقيد، حتى بلغ الأمر الى تقديسهم ومن ثم تأليههم، وهذا غير مقبول ويفتقر الى الموضوعية في بلوغ الحقيقة. ولنا بعد ذلك، الاستمرار في فهم حيثيات القصة، أو الحوار المثمر الذي نتج عنها، عندما نفهم سرّ البحث عن الحياة الفاضلة، من خلال البحث في مطلب العدالة الإنسانية، وما يشترط فيه من روابط مع بني البشر، فهل يمكن للإنسان تحقيق السعادة بمعزل عن الآخرين؟

(1) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، ص 199.

و لأنّ " جيلجاميش-Gilgamesh " شاب شديد العزيمة؛ وهو حاكم مدينة " أوروك " في بلاد سومر؛ إنّه يسوق شعبه سوقا عاتيا، فيلتمس الشعب الى الآلهة بأن تخلق منافسا له يشغله، فيجد الشعب شيئا من الراحة؛ فتستجيب الآلهة وتخلق " أنكيڊو "، ويصبح رفيق جيلجاميش، ويخرج الاثنان في طلب المغامرات والأخطار، ويشقّان الطريق الى غابة الأرز في الغرب، حيث يصرعان حواوا وهو وحش رهيب يحرس الغابة (لأنليل)، وقبل بدء المعركة مع حواوا تقاعس أنكيڊو برهة وقد خذلته شجاعته فراح جيلجاميش يؤنبه⁽¹⁾، بكلمات تدل على صرامته في القول، وعدم الاكتراث للمخاطر من وقوع المكاره أو الخوف.

لقد دار الحوار بين جيلجاميش وصديقه؛ في شبه تساؤلات تعبّر عن مقاييس البطولة لإنسان يحمل كلّ مواصفات ضبط النفس، منها:

➤ من الذي، يا رفيقي أدرك من السمو (ما يمكّنه من) الصعود الى السماء والإقامة مع شماش الى الأبد ؟

➤ مجرد إنسان-أيامه معدودات، ومهما فعل إن هو إلا هبة ريح.

➤ أراك قد خشيت الموت، أين بأسك وشجاعتك ؟

➤ دعني أقود؛ وتخلّف أنت لتصبح بي: "أطبق عليه، ولا تخف ".

➤ وإذا سقطت مضرجا، أكون قد بنيت أساسا لشهرتي. فيقولون عني "قتل جيلجاميش وهو يصارع حواوا الرهيب..."⁽²⁾.

في هذا القسم من حوار الإنسان ومناجاته مع النفس تارة ، وتوجيه الخطاب للآخر تارة أخرى، نقول بأنّ هذا الأخير لا مفر له من العيش وحده دون وجود الغير؛ لأنّ الإنسان في هذه الحالة يشعر بأنه عبارة عن أيام معدودات، يخشى الفراغ والوحشة والانغلاق.

لكن؛ موقفه ذاك، لم يعن الموت حتى تلك الآونة، شيئا "جيلجاميش"؛ فهو قد قبل مقاييس

البطولة المعهودة ومقاييس حضارته المعهودة، الموت لأبد منه، ومن العبث التخوّف منه، فإذا كان

(1) مرجع سبق ذكره ، ص198.

(2) مرجع سبق ذكره ، ص200.

على المرء أن يموت، فليمت ميتة المجد والفخار في مقاتلة خصم جدير به، لكي تعيش شهرته من بعده، إلى أن يموت (أنكيديو) عقابا له من الآلهة على صرعه... فيدرك جيلجاميش ما لم يدركه من قبل " (1) أنه إنسان ببعديه: الأنا من الداخل، والغيرية من الخارج، وإن كانت حياته يكتنفها التناقض؛ فهو لابد من سلك طريق محتوم، عليه بالرضا بالنتائج المترتبة عن ذلك الطريق، وبالتالي، فالإنسان يختار مصيره ويقتنع بالفكرة التي تشكّل موقفه من الحياة التي يعيشها.

ولما يكتنف الحزن في نفس الإنسان لأجل ضرر يصيبه، فهو في الجهة المقابلة قد يصبه الحزن على الطرف المناقض له، لأنه يفقده ولا مبرر لفقدان طعم الحياة بعده. وهذا ما وقع للشاب جيلجاميش عندما فقد صديقه، فالمعنى: أن الإنسان لا يمكن أن يعيش وحده دون وجود النقيض له، لأنه يمثل الندية في الحياة، فيشعر بالاحباط والأسى من جهة أنه يتصور موقف صديقه فيه.

والسؤال : هل الشاب جيلجاميش جدير بالشجاعة المطلقة لو لم يكن معه صديقه ؟

✓ ولماذا يلوم صديقه (غيره) لو لقي حتفه بنفسه ؟

✓ هل تفكير جيلجاميش كان صائبا ؟

وفي الأخير؛ نستخلص نتيجة مهمة من هذه القصة الأسطورية، والتي تعبّر عن بطولة الشاب الذي يتدبر الأمر، ويقرّر مصيره بنفسه. وعليه؛ تكون الرواية البابلية وإن امتزجت بالأسطورة، فقد كانت تهتم بمصير الإنسان، وأحواله في هذه الحياة، فصنع له الحكماء طريقا أخلاقيا، يمكنه أن يصل إلى تحقيق العدالة والفضيلة، مادام يحسن التدبير في اتخاذ الموقف الصحيح في الوقت المناسب دون خوف من المخاطر؛ وهذه النظرة لحياة الإنسان في الفكر الشرقي القديم، تفاؤلية تدعو إلى الرغبة والطموح، وليست تشاؤمية تدعو إلى اليأس والخضوع للمعاناة والآلام وشظف العيش. إن فضل الحضارة البابلية على البشرية، هو أنها صنعت في الإنسان الرغبة في الحياة؛ فهو رمز القوة في التأمل والعمل معا، وشخصا سعيدا وحكيما، وراضيا بمصيره.

(1) المرجع نفسه، ص 200.

الفصل السادس

الفكر الفارسي القديم

المبحث الأول : في طبيعة التفكير الفارسي القديم:

كانت الفضائل عند الفرس كما هي عند غيرهم من الأمم؛ تتألف من صفوف ودرجات. لكل صف منها منزلته الخاصة. فمثلاً: الشرف والاحسان والأمانة الزوجية من الجانبين؛ كانت في الصف الأول، ولقد كانت العدالة والعفة والاخلاص والصدق من أجل الفضائل، كما كان العمل على تنمية النوع البشري، وتقويته من ظاهل الواجبات الدينية. ولهذا أباحت الشريعة الزرادشتية" تعدد الزوجات، ليكثر النسل وحرمت الصوم، لتتوفر القوة في جميع أفراد الشعب، وكذلك محاولة زيادة خصوبة الأرض والاستمتاع بما في هذه الحياة من خيرات ولذات مشروعة؛ كانت من أسمى فروض الشريعة ، حتى أنّ إهمال بقعة من الأرض دون إثبات أو عدم الاكتراث بالتزيّن ، كارتداء الملابس أو عدم المبالاة بتنظيم قص الشعر والأظافر، كل ذلك كان من الجرائم الممقوتة، اما الرذائل المستفظة، فهي أضداد هذه الفضائل طبعاً"(1).

ومع ذلك كلّهُ؛ في ظل اسهامات الحضارات الشرقية في بناء الحضارة اليونانية الصاعدة، تظهر الاتهامات لتلك الحضارات الشرقية على حد وصف عبد الرحمان بدوي، فقد تقابلت هنا حضارتان، أو بالأحرى تقابلت حضارة واحدة قد بلغت أوجّها، مع حضارة أخرى أو ثقافة قد انحلت منذ زمن طويل، ولم تبق فيها إلا حياة ضئيلة . وحينئذ استطاعت الثقافة اليونانية في بادئ الأمر، أن تقرض سلطانها: فبعد أن كانت الثقافة الشرقية قائمة؛ انتصرت الثقافة اليونانية على الثقافة الشرقية. لكن- كما يحدث دائماً من امتزاج جنس أعلى بجنس أدنى- حدث فساد وانحطاط في مستوى الجنس الأعلى لحساب الجنس الأدنى. وهكذا حدث بالنسبة الى الحضارة اليونانية؛ إذ غزتها الحضارة الشرقية بما فيها من تهاويل وأمور تتصل بالخوارق والسحر"(2)، وما فيها من أديان- بالمعنى السحري الصوفي- فخضعت الثقافة اليونانية لهذه العناصر الأجنبية السحرية، ومن

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص199.

(2) عبد الرحمان بدوي، خريف الفكر اليوناني، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ط5، 1979م، القاهرة، ص6.

ثم أخذت في الاضمحلال حتى أتت على نهايتها.... فكانت نتيجة هذا التغير في الوضع السياسي أن تحولت النظرة من الوجود ومن الفكر، الى السلوك والعمل. فلم يعد المفكر ينشد من وراء تفكيره أن يدرك مظاهر الوجود، وأن يتبين ما فيه من قوى، وأن يفسر ما تخضع له الطبيعة من قوانين، وإنما أصبح كل همّه... أن يوجد لنفسه قواعد للسلوك ⁽¹⁾، يسير وفقها لتحقيق الغاية المثلى من الوجود، وهو تمثيل " الإنسان الأعلى" الذي أراده " الحكيم زرادشت "؛ الذي يسمع للنصيحة وصوت الحكمة والعقل. لا أن يكون ساذجا في حياته، يعيش بين اللذة و الألم ، والتفكير في كيفية تجاوزها، ومن هنا؛ جاء التفكير اليوناني في إعادة النظر في أخلاق الإنسان اليومي.

ففي الحضارة اليونانية، وتعني بها مسألة الأخلاق. ويفهم من الأخلاق هنا؛ الأخلاق الفردية، أي المتعلقة بتحقيق السعادة للفرد أو للمجموع بوصفه مجموعة أفراد. فمثل هذه الفلسفة الأخلاقية التي تعتد بالفردية وتتشد الخلاص، لا يمكن أن توجد بشكل واضح في دور الحضارة؛ لأن الإنسان في هذا الدور لا يستطيع أن يميز تميزا كبيرا بين الحياة العملية الخارجية، وبين الفكر والحياة الباطنة. ومثل هذا التمييز هو الأساس في كل بحث أخلاقي فردي، لأن الشعور بالشخصية -ونقصد بالشخصية هنا الذات المفردة- لا يكون واضحا إلا في دور المدنية، فما يقوم من أبحاث حول الشخصية لا يوجد بالتالي إلا في الدور الأخير ⁽²⁾.

أعني أن الدين قد طبع بطابع أخلاقي صرف: وكان طبيعيا من أجل هذا أن تجد الأفكار الشرقية المتصلة مجالا واسعا في تصوّرات هذا العصر الدينية. وعلى هذا بدأ الاعتراف بوجود هوة بين المتناهي واللامتناهي يظهر، وبعد أن كان اليوناني لا يميز تميزا كبيرا بين نفسه وبين آلهته، بل يقول بوجود اتصال وتطور مستمر متّصل بين الآلهة وبين الإنسان؛ نجد أن فكرة اللامتناهي، بوصفها صفة الله الأولى، قد بدأت تحلّ، صادرة عن الأفكار الشرقية، واستتبع هذا إدراك الهوة الموجودة بين المتناهي واللامتناهي، والتي لا يمكن عبورها بالطريق الإنساني الصرف، فكان لابد من وجود وسطاء بين المتناهي واللامتناهي ⁽³⁾.

(1) عبد الرحمان بدوي، خريف الفكر اليوناني، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ط5، 1979م، القاهرة، ص6.

(2) المرجع نفسه ، ص5 .

(3) المرجع نفسه، ص9.

لقد عُرف عن الفرس قبل الدولة الساسانية، أنّهم كانوا يدينون بثنائية كونية أخلاقية، تنطوي على مبدئين هما : النور والظلام، أو مجموعة الأرواح الخيرة ومجموعة الأرواح الشريرة، وهذان المبدآن في صراع دائم، وتتحقق الغلبة في النهاية لإله الخير، وقد جاء زرادشت واستغل هذه الفكرة القديمة⁽³⁾، لنشر تعاليمه حول هذه النظرية (نظرية الخلق)؛ حيث كان أول من جاء بدين التوحيد، أو دين التقوى، أي : أنّ الإله واحد ، وهو خير، وقادر، يمثل النور. بينما الشرّ في العالم مصدره الشيطان . لكن الأمور تغيّرت بعد وفاة الحكيم "زرادشت" بعد مئتي عام تقريبا ، ليصبح هذا الحكيم موضع تقديس وعبادة، كما وقع مع الحكيم الصيني " كونفشيوس "، والحكيم الهندي " بوذا "، وغيرهم من الحكماء الذي تجاوزوا المعتقد ، ليصبحوا فيما بعد آلهة .

لكن مع زرادشت أمر آخر؛ حيث أعداوا صياغة تعاليمه بطريقة أخرى، فلم تعد تعاليمه مصدر عبادة؛ وإنما تم تمثيل فكرته حول الإيمان باللهب المقدّس، فابتدعوا النار، ومنه ظهرت الديانة المجوسية ، واعتبروا الشرّ ممثلا في الشيطان الذي يشعر بالنقص، ويحارب الخير المطلق في الانسان. وربما لا نجد مصدر هذا التحوّل الجذري في الديانة الفارسية من الإيمان بالإله الخير ، الى عبادة الأشياء المادية (منها: النار)، مثلها في ذلك العبادة في الحضارة المصرية القديمة، التي انتقلت تارة من عبادة الإنسان الى عبادة مظاهر الطبيعة ثم العودة الى عبادة الإله الواحد، ثم تحوّلت مرة أخرى الى عبادة الأوثان، وهكذا .

هذا التحوّل؛ الشامل في التفكير الديني القديم في الحضارة الفارسية، مرّ بمراحل حسب طبيعة التفكير المجتمعي الذي كان سائدا آنذاك، ولا يخل من وجود تقلبات فكرية وثقافية واجتماعية وسياسية في الحضارة الفارسية، التي كانت عرضة للتأثيرات الداخلية والخارجية؛ فلم تثبت على حالة واحدة من الاستقرار النفسي والاجتماعي والسياسي، كسابقتها من الحضارات، وسوف نوضّح في هذا الفصل من البحث، لطبيعة التفكير الفارسي القديم بشيء من التركيز على مايلي :

(1)أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ج1، دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ، ط2، 1990م، ص80-81.

المبحث الثاني: حياة زرادشت ونشأة الديانة الزرادشتية.

أ/- شخصية الحكيم زرادشت :

لقد تناول النقاد شخصية زرادشت؛ فذهب البعض منهم الى أن هذه الشخصية خرافية وأن وجودها موضع شك كبير، ولكن المستشرق جاكسون في كتابه: "حياة زرادشت" أثبت بالأدلة العلمية أن زرادشت شخصية حقيقية عاش في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ومات سنة 583 ق. م . وكان يقيم بأذربيجان، وقد انتشر الدين الذي بشر به من بلخ الى فارس، وذلك على أثر إيمان الملك الفارسي "كستاسب" به ⁽¹⁾.

كما يجمع أكثر الباحثين على أن "زرادشت" قد وجد حقا، وإن كانوا جميعا لا يجرؤون على القول بأن لديهم أي برهان علمي يدل على وجوده، وهم يجتمعون كذلك على أنه وجد حوالي نهاية القرن الثامن (08) قبل المسيح، وإن كان قد شذت عن هذا الاجماع الأخير شخصية من أجل الشخصيات العلمية، وهي شخصية الأستاذ "كليمين" الفرنسي الذي يرى أنه وجد في أوائل القرن العاشر قبل الميلاد ⁽²⁾.

وفي معنى هذا التصريح؛ نجد البحث في هذه الشخصية كانت أحادية، ومتحيزة، لا يمكن لأي جهة علمية تناول هذه الشخصية التي تبدو غامضة للبعض، أي جاءت بتعاليم غير واضحة، كما ألغناها مع تعاليم كونفوشيوس أو لاوتسي أو بوذا أو بتاح أو غيرهم. لكن مع شخصية "زرادشت" لم تلق الدراسة الكافية للتوسع فيها، خاصة وأنه كان مصدر فكرة التوحيد أو دين التقوى، وأنه كان مصدر الديانة المجوسية فيما بعد . والفرق بينه وبين سابقه من الحكماء ؛ هو أنه لم يرتق الى مصاف الآلهة، كما هو شأن الحكيم كونفوشيوس ثم بوذا .

(1) أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص81.

(2) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص185.

فمن هذه الأساطير أنه وُلد ضاحكا، رافعا وجهه ويديه نحو السماء، وأنه حدث ليلة مولده معجزات شتى رآها الخاصة والعامة، ومنها أنه تحدى بعض مشاهير السحرة في عصره ؛ فحاولوا أن يهلكوه بكل ما أوتوا من علم وقوة، ولكنهم فشلوا في ذلك فشلا ذريعا. ومن ذلك أنه كان ينسحب من البقاع الآهلة بالسكان ويأوي الى الصحراء، ليعتكف فيها مناجيا ربّه بقلبه ولسانه، وأنه كان يوحى إليّه بوساطة الملائكة، وأنه عرج به الى حيث الإله نفسه فصار أمامه، وأنه سحر الملوك بتراهينه، وأنه كان دائما على رأس الدعاية التي أسسها لدينه (يقصد دين التقوى)، وأنه مات في إحدى الحروب الدينية التي كان يقوم بها ⁽⁵⁾.

ب/- الألوهية في الفكر الزرادشتي القديم:

يجد الباحث في قسم "الجاتها " أنّ " زرادشت " أرجع جميع آلهة العهد القديم الى إلهين اثنين . إله الخير " أهورا مازدا "، أو " هورمازدا " أو " هرموز "، وإله الشرّ أو الكاذب أو الرديء؛ وهو الذي سيُسمى فيما بعد " أهرمان " في رأي المحققين. ولكن هذه التثنية ليست على علاقتها، ولم تكن تثنية بمعناها الصحيح؛ لأنّ الإله الذي خلق الكون هو " أهورا "، أمّا " أهرمان " ؛ فلم يكن له عمل إلاّ إيجاد شبه ظلّ من الشرّ لكلّ خير يخلقه⁽⁴⁾. وهنا نتساءل : لماذا هذه النظرية الدينية، لم يظهر فيها رجال الدين ؟ وهل يمكن أن تكون الحضارة الفارسية القديمة ذات بعد ديني بامتياز، كما هو شأن الحضارة المصرية مثلا؟ ولماذا لم تبرز الديانة الزرادشتية للعلن، وتعمّر كما هو حال الديانة البوذية ؟ وإذا كانت هذه الديانة تتحدث عن الخير والشرّ، فهل هي فلسفة أخلاقية جاء بها زرادشت من أجل اصلاح مجتمعه الغارق في الجهل؟

إذا؛ فالروحان الأولان اللذان ظهرا في الوجود كتوءمين، هما: الخير والشرّ، وهما دائما في التفكير والقول والعمل. والحكماء قد اختاروا بينهما، وحسنا اختاروا، ولكن المغاليك هم الذين أساءوا الاختيار. وعندما تقابل هذان الروحان في مبدأ الوجود أسسا الحياة واللاحياة. وفي نهاية الأشياء

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص185.

(2) المرجع نفسه ، ص190.

(3) المرجع نفسه ، ص191.

(4) المرجع نفسه ، ص 191.

سيكون أردأ أنواع الوجود من نصيب الذين يتبعون الكذب، كما يكون أحسن الفكر من نصيب الذين يتبعون الخير. إلى أن يقول: "أيها الفانون إذا أنتم أطعتم أوامر "مازدا" الذي نظم السعادة والألم قاعدة العقاب الطويل للكذابين، وبارك الأخيار، فإنكم ستفوزون بالسعادة الأبدية"⁽¹⁾.

ولسنا ندري هنا؛ هل ترك لنا " زرادشت " تعاليم واضحة و مكتوبة ، أو منقولة من طرف تلامذته، كما هي تعاليم كونفوشيوس مثلاً؛ ومن ثم نقول بأنّ الحكيم " زرادشت " ، يملك مصداقية في نظرية اصلاحية، أو له نظرية أخلاقية، أو نظرية دينية، أو هو في حدّ ذاته رسول من الله تعالى. ومع ذلك نلاحظ بأنّ ما نقل عنه من نصائح ومواعظ، كانت نتيجة حواراته مع المجتمع الذي عاش فيه. وما يلفت الانتباه هو حديثه عن الفناء، والبحث عن السعادة الأبدية، والخوف من العقاب، هي دلالات على أنّ تعاليم " زرادشت " الوعظية ، هي أخلاقية وروحانية، وكأنّه مبعوث من السماء بمهمة الارشاد، لكن صوارف الزمان آلت الى عكس ذلك، بل زادت من الهوة بينه وبين قومه.

ومما يُروى عنه في هذه الوظيفة، انه قال : "إنني أحبّ البشر ولمّ أنا أمضي وحيداً في الغاب وفي الخلاء يا ترى ؟....لكنني الآن أحبّ الله : أما البشر فلا أحبهم . فإنسان شيء فادح النقص في نظري . وحبّ البشر سيكون فيه هلاكي "⁽²⁾.

نفهم من هذا الكلام؛ تحصر " الحكيم زرادشت على قومه، على عدم الطاعة له والخضوع للنصائح والارشادات التي ستفيدهم للخروج من المعاناة التي كانوا عليها. لأجل ذلك ينطوي على نفسه، ويفضل العزلة عنهم. وهذه النظرة التشاؤومية، قد تأثر بها " ماني " فيما بعد، واتجهت نحو السلبية أكثر معه، في تعاليمه الدينية الجديدة، والتي سوف نتطرق إليها فيما بعد.

كما حدثت خرافات أخرى لم يكن للفرس عهد بها من قبل: "كذلك العملاق ذي الأرجل الثلاث، والذي له أهمية في إدارة العالم، ولكن ينبغي أن نلاحظ أنّ "مازدا"، هو الذي كان لا يزال الإله الرئيس على جميع هؤلاء. ولم يكن الآخرون إلاّ آلهة ثانويين أو ملائكة أو أرواحا "⁽³⁾.

(1) محمد غلاب، المرجع نفسه ، ص191.

(2) فريديك نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، تر/ علي مصباح، منشورات الجمل، ط1، 2007م، بغداد. ص38. بتصرف.

(3) المرجع نفسه، ص193.

وعن أخلاق الشرّ والسوء، يُحكى أنّه على رأس هؤلاء وضعوا "أندرا " الإله الشعبي القديم، ولكن تحت اسم وزير سابع خاضع لـ "أهرمان". ودون هؤلاء الوزراء وضع رجال الدين أيضا ملائكة شرّ وأرواح سوء وشياطين وسوسة وضلال، وذلك مثل ملك الردد وملك العواصف المدمّرة، وكالأرواح الحالّة في الحيوانات المؤذية والحشرات الضارة. وهناك أيضا من هذا الحزب شياطين مُوكّل كل واحد منها برذيلة من الرذائل، عليه أن ينمّيها وينشرها ويعلي شأنها "(1).

والمناسبة في اسداء الحكيم " زرادشت " نصائحه لمجتمعه القابع في الضلال وفوضى التفكير، يذكر لنا الفيلسوف الألماني " نيتشه "، هذه الحادثة بقوله: " عندما دخل "زرادشت" أوّل مدينة واقعة على طرف الغابة؛ وجد شعبا كثيرا متجمّعا هناك في ساحة السوق؛ وكان قد أعلن بينهم عن قدوم بهلواني الى هناك. وهكذا تكلم زرادشت؛ مخاطبا ذلك الشعب: "إنني أعلمكم الإنسان الأعلى . الإنسان شيء لابد من تجاوزه. فما الذي فعلتم كي تتجاوزوه "(2).

وربما هذه حقيقة واقعة في الشعوب التي لا تمتثل لحكمائها، فتنصاع الى أراذل الناس في التفكير والتدبير، أو الى الأفكار الساذجة الموجودة عند أبسط إنسان، دون الانتباه الى النصائح التي يقدمها الحكيم الا بعد فوات الأوان. وعليه يذكرهم الحكيم "زرادشت" بحقيقة الإنسان الأعلى صاحب العقل والبصيرة بدل التجمّع على أشياء عبثية، قد تضر أكثر ممّا تنفع .

ومن حكمه الخالدة قوله: " أريد أن أعلم البشر معنى وجودهم؛ ألا وهو الإنسان الأعلى، الإنسان الصاعقة النازلة من السحابة الداكنة.... لكنني ما زلت بعيدا عنهم وعقلي لا يستطيع مخاطبة عقولهم، حالة وسطى أنا بالنسبة لهؤلاء، بين مهرّج وجنّة "(3).

وعندما نسمع مثل هاته الحكم المؤثرة في العقول، حول الرغبة في تعلم معنى الوجود الفعلي للإنسان حسب تفكير الحكيم " زرادشت "، نكتشف حجم التباعد الذهني بينه وبين شعبه أو مجتمعه البعيد عن التفكير السليم في الحياة ، ومن ثمّ نكتشف أيضا لماذا تأثروا بفلسفة ماني المتشائمة حول

(1) المرجع السابق، ص194.

(2) فريديك نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، ص40.

(3) المرجع نفسه، ص53.

الحياة ، وكأنهم كانوا لا يملكون معطيات التفكير، وأنهم كانوا يعيشون حياة ضنكة، بسبب استحالة مخاطبة عقولهم بما هو أنفع لمصالحهم، والنتيجة، هي أنّ الحكيم والمصلح في ذاك الزمان كان خارج مجال التغطية، ولا امل في تلقينهم النصائح كي يصبحوا في مرحلة متطورة . بل العكس من ذلك؛ كان الحكيم في كل عصر يواجه الأسوأ في حياته، لكنه سرعان ما يعود له الاعتبار بعد موته، في إشارة إلى تفكير مجتمعه السخيف، وضياح الطريق الصحيح في التفكير الأنسب لحل مشكلاتهم.

ومن تأملاته الفلسفية مثلاً، قوله: " ما يشعر به الحسّ، وما يميّزه العقل لا غاية له في ذاته البتّة. لكن الحسّ والعقل يحاولان إقناعك بأنّهما غاية، ومنتهى كلّ الأشياء: الى هذا الحدّ يصل بهما الغرور"(1). وفي هذا التأمل ؛ تظهر حكمة " زرادشت " على أنّه صاحب بصيرة في الأمور الحياتية، وأنّه على دراية بطريقة تفكير مجتمعه الذي يراه في سذاجة من الرأي في معالجة أمورهم الحياتية .

كما تحدّث عن اللذة والألم عند الإنسان، لكن بشكل مختلف عن فلسفة بوذا التشاؤمية عن الحياة، والعبارة هي:

تقول الذات للأنا: " ذوقي الآن ألماً ؛ فتتألم الأنا وتشعر في التفكير في وسيلة لدرك الألم - ومن أجل هذا بالذات يكون عليها أن تفكّر .

تقول الذات للأنا: " ذوقي الآن لذّة ؛ فتتلذّد وتشعر في التفكير في وسيلة تعيد إليها مراراً هذه اللذة-ومن أجل هذا بالذات يكون عليها أن تفكّر "(2).

إنّ رأي " زرادشت " في موضوع اللذة والألم، على أنّهما فطريان في النفس الإنسانية، قد تختلف عن نظرة بوذا، على أنّه يتحدث عن تذوق الألم في المرحلة الأولى، لكن في المرحلة الثانية، يتحدث عن التفكير في الوسيلة لتجاوز تلك اللذة ، عن طريق عودة الذات المدركة لها الى التفكير العقلاني؛ فهناك فكر وهناك واقع . وهذه الثنائية تجعل من تعاليم " زرادشت " حول النظرية الأخلاقية واقعية؛ أي: أنّ الحلول للمشكلات الإنسانية، موجودة بمجرد التفكير فيها .

(1) فريديك نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، ص75.

(2) المرجع نفسه، ص76.

الذات المبدعة هي التي ابتدعت الاعتبار والاحتقار، وابتدعت اللذة والألم . الجسد المبدع هو الذي ابتدع لنفسه العقل يدا لإرادته"(1).

وهذه من حكم " زرادشت " حول الذات الإنسانية التي يجب أن تتحلّى بالتعقل، أو هي الذات الناطقة أو العاقلة عند أفلاطون؛ كونها مصدر السلوك، لذلك يعبر عنها بالذات المبدعة لكل الأفعال الحسنة والسيئة .

ومن حكمه في شأن الإنسان كثيرة ومهمة للغاية وواسعة التأمل، ومنها قوله: " إنّ الإنسان شيء لابد من تجاوزه؛ لذلك عليك أن تحبّ فضائلك؛ فهي التي تؤدّي بك الى حتفك"(2). هكذا تكلم زرادشت عن التشاؤمية في الانسان، فهو يفكر في مصيره بصورة دائمة، على أن يحيا حياة الفضيلة، وأن يعيش بكرامة الى أن يفنى كما أراد .

ومن حكم زرادشت قوله: " أحقق هو من يظلّ على قيد الحياة، لكننا على غاية من الحمق؛ وذلك بالضبط هو الأكثر حمقا في الحياة.

"عذاب، ولا شيء سوى عذاب هي الحياة"-هكذا يقول آخرون، وهم لا يكذبون: فلتعملوا إذا على أن تكفّوا عن الحياة؛ ولتعملوا إذا على أن تضعوا حدّا لحياتكم هذه التي ليست سوى عذاب"(3).

وفي بعض الأحيان يكون ناصحا حكيما واجتماعيا وسياسيا، يدلّ دلالة قاطعة على معاشته للأوضاع الاجتماعية والسياسية والأخلاقية السائدة، ومنها على سبيل المثال :

إليكم منّي هذه العلامة: كلّ شعب يتحدّث بلسان خيره وشرّه الخاص: وهذا اللسان لا يفهمه جاره. فلغته قد صاغها لنفسه في الأعراف والشرائع .

لكن الدولة تكذب على كلّ لسان للشرّ وللخير: وبأيّ كلام نطقت فهي تكذب-وكلّ ما في يدها، إنّما هو ممّا سرقتّه"(4).

(1) فريديك نيتشه ، المرجع نفسه ، ص77.

(2) المرجع نفسه ، ص80

(3) المرجع نفسه ، ص95.

(4) المرجع نفسه ، ص103.

ومن حكم " زرادشت " حول فضائل الإنسان وعلاقته بالآخر، كونه يعبر عن واقعية الإنسان في حياته اليومية، من خلال الممارسة الفعلية للأخلاق السامية؛ كان يردّد :
" وكما ينبسط العالم أمامه مثل سجاد يُفتح له، كذلك يلتفت أمامه مجددا طيّات تطلع صيرورة الخير داخلها من خلال الشرّ، وصيرورة الغايات من صلب الصدف.
ليكن المستقبل وما هو أبعد علّة يومك الذي تحيا: لتحبّ في صديقك الإنسان الأعلى الذي هو علّة وجودك.

لا أنصحكم بمحبة القريب يا إخوتي: بل أنصحكم بحبّ الأبعد. هكذا تكلم زرادشت على حد تعبير الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه " (1).

وعن واقعية الحكيم " زرادشت " في تعايشه مع أموره اليومية، يتساءل : هل تستطيع أن تمنح نفسك خورك وشرّك، وأن تعلق إرادتك مثل قانون فوقك ؟ هل تستطيع أن تكون قاضي نفسك والمقتصّ لقانونك ؟ " (2).

لقد كان صارما هذا الحكيم في حديثه عن العدالة الاجتماعية، وهي موضوع حساس جدا، كان محل جدل كبير في حضارات الشرق القديم، لكن بنسب متفاوتة من النقاش حول تطبيق العدالة على الجميع، وحول هذا الموضوع يقول : " ولتبتدعوا لي إذا العدالة التي تبرئ الجميع، عدا القاضي.... أتريدون الاستماع الى هذا الأمر أيضا ؟ من يريد أن يكون عادلا كلّ العدل سيجعل من الكذب أيضا سماحة تجاه البشر.... لكن كيف يمكنني أن أكون عادلا كلّ العدل ؟ وكيف يمكنني إعطاء كلّ حقّه ؟ بل يكفيني هذا : أن أمنح كل أحد حقي الخاص " (3).

الغريب في نقاشات هذا الحكيم، لم يكن له مريدين، وإنما كان يتبع سياسة المواجهة مع الخصم للمجادلة حول موضوع القانون الأخلاقي، يشابه في ذلك موقف سقراط في منهج التوليد والتهكم؛ ومخاطبا في سخرية مع الذين لا يفهمون كلامه أحيانا. ولم يكن مثل كونفوشيوس له أتباع ينفذون تعاليمه، لذلك نتساءل : كيف تحول فكر " زرادشت " الى تعاليم دينية وهم له خصوم ؟

(1) المرجع نفسه ، ص125.

(2) المرجع نفسه ، ص127.

ج/- الإنسان في الفكر الفارسي القديم:

لم يوجد في القسم القديم من (زند أنيستا) ما ينبئنا برأي "زرادشت" في الشخصية البشرية من : جسم وروح من حيث المبدأ أو المصير، وإن كل ما لدينا في هذا الشأن قد وجد في الأجزاء الأخيرة التي كتبت بعد عصر زرادشت، بزمان يسير ؛ أي بعدما ارتقت المعارف الانسانية نوعا ما وبدأ الخاصة، يفكرون في ثنائية الانسان ويحلّلونه لدى جسم وروح⁽¹⁾.

يجد الباحث في هذه الآيات المتأخرة ، إنّ الانسان يتألف من جسم وروح ، وأن الجسم يتكون من أربعة أشياء: اللحم والعظم والقوة الحيوية والصورة أو القلب، وهذا الأخير وحده الذي يعود الى الحياة في حالة البعث دون الثلاثة الأولى التي لا تبقى.

وإنما الروح فهي عندهم خمسة أنواع بين كل واحد منها وبين الأربعة الأخرى شيء من الترادف أو التقارب يجعل التحديد التدقيق صعبا، أو كما يقول أحد الباحثين الأوربيين : " إنّ مفردات لذاتنا لا نستطيع التعبير الصحيح من هذه المعاني. وهناك هذه الأسام للروح:

(1)النفس والإلهام والعقل (2) الدين والضمير الخلقي والوحي (3)الوجدان النفسي والشعور والاحساس (4) الروح بأدق معاني الكلمة (5) " الفراقاشي " وهو عبارة عن شبح سماوي هو في نفس الوقت ملك حارس وروح جوهريّة. وعلى الجملة: هو الانسان الحقيقي الذي ليس الكائن البشري إلّا مظهرًا له. وهو وحده الذي يستطيع أن يتّصل بـ " أهورا مازدا " ويحيا في حضرته. ولهذا عند الموت يفنى الإنسان كله في هذا الفراقاشي⁽²⁾.

و عندما يموت الميت؛ تظل الروح ثلاثة أيام وثلاث ليال معلقة الى جانب الجسم. منعمة بنعيمه أو معذّبة بعذابه، وفي فجر اليوم الرابع تهبّ عليها ريح، إمّا معطرّة اذا كان الميت خيرا. وإمّا نتنة اذا كان شريرا فتحملها الى موضع يلتقي فيه إمّا بفتاة جميلة، وإمّا بعجوز مفزعة⁽³⁾.

هذه التصورات حول البعث و المعاد الأخروي، والمنبثق من ديانة وثنية، لم نجد لها تفسير على أنها كانت من تعاليم الحكماء في بلاد فارس، ولا من تصورات " زرادشت "، وإنّما تحتاج الى تبرير.

(1)محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص/194-195.

(2) المرجع نفسه ، ص195.

(3) المرجع نفسه ، ص196.

ثم يزعمون كذلك: " أما الأخيار فيذهبون الى النور حيث يستقبلوهم " أهورا مازدا " ، بعد أن يمرّوا في وسط العمل الصالح والقول الخير والفكرة الطيبة؛ وهناك يستمتعون في كنف "مازدا " بالسعادة الأبدية "(1).

و ليست الأخلاق من وضع الأهواء البشرية، ولا من اختراع المنافع الفردية، حتى تتأثر بالأزمنة والأمكنة والظروف المختلفة. وإنما هي قوانين عامة خالدة، ولذلك نرى الفضائل الجوهرية؛ هي هي عند قدماء المصريين. وعند الهنود والفرس والصينيين واليونان والرومان، كما هي عند شعوب القرن العشرين في جميع بقاع الأرض، إلّا من تغيّرت طباعهم، وتبدّلت فطرتهم، بسبب من الأسباب التي أجمع علماء الأخلاق والنفس والاجتماع على تأثيرها في السلوك ابشري"(2).

ولذلك يرى " زرادشت " أنّ للعالم قوانين ثابتة طبيعية يسير عليها، وأنّ هناك تصادما ونزاعا مستمرا بين الخير والشرّ، أو بين النور والظلمة، ومجهوده في هذا الاتجاه هو توحيده لمجموعة الأرواح الخيرة ، وقد سماها "أهورمازدا" ، أما مجموعة الأرواح الشريرة فقد سماها "أهريمن" ، وربّب لإله الخير القدرة على الخلق. فهو مصدر الموجودات الخيرة، وكذلك إله الشر، فإنّ له القدرة على خلق الموجودات الشريرة. والحياة في مظاهرها المختلفة تتمثل في نزاع دائم بين المخلوقات. فالشر يحاول دائما مهاجمة الخير، ولكن الخير يدفعه ويتحدّاه حتى يصصره. والإنسان مسرح لهذا الصراع، ففيه قوة تميل الى الخير وأخرى تنزع الى الشرّ، وهو حرّ الإرادة ، وعلى هذا فإنّه يتعيّن على الإرادة أن تختار واحدا من بين هذين الاتجاهين رغم أن الإنسان من مخلوقات "أورمازدا" أي إله الخير "(3). ومن باب التمثيل على حقيقة هذه الديانة التي تنشأ النور والظلمة، أو الاقرار بوجود إله الخير ، وإله للشر، يلاحظ أي شخص عاقل سذاجة هذا التصور حول تسيير هذا الكون وفق صراع إلهين فقط حول مصالح البشرية؛ نستنتج بأنّ هذا التصور لم يلق القبول في العالم ، وعلى أنه دين وضعي عقلاني، محفوف بالدلائل من جهة، ومن جهة أخرى؛ هذا التصور مصيره الزوال، بدليل ظهور

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص196.

(2) المرجع نفسه، ص199.

(3) أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص81 .

التطرف أكثر مع "تعاليم ماني"، وكان مصيره على يد الملك بالهلاك. وتحول هذا التصور الى ديانة أخرى منبوذة أكثر ، وهي الديانة المجوسية وعبادة النار، وهي ديانة وثنية، بعدما كانت ديانة سماوية تؤمن بالبعث. وتشبه نوعا ما الديانات السماوية بحديثها عن المعاد الآخروي والسعادة الأبدية؛ وحول تنزيه الله تعالى عن أفعال الشر ، والأكثر من ذلك عن مصير الإنسان في الحياتين: الدنيا والآخرة.

لقد قال "زرادشت" أيضا بحياتين للإنسان؛ حياة أولى في الدنيا وحياة أخرى بعد الموت. ونصيب الإنسان في حياته الأخرى هو نتيجة حتمية لأعماله في حياته الولي. وذلك بعد أن ترصد هذه الأعمال في كتاب خاص، وهنا نجد اشارات كثيرة الى مسألة الحساب والبعث كما نجدها عند المسلمين. وقد أشار زرادشت أيضا الى ما يشبه عقيدة الصراط عند المسلمين. وقد عرف العرب كتاب زرادشت المقدس وسموه "الابستاق" (Avesta) ، وسموا شرحه بالزند (Zend Avesta) كتاب مقدس كان يتضمن-على عهد زرادشت- واحدا وعشرين بابا. ولم يبق منها إلا باب واحد لا يحتوي إلا على مقتطفات في الشعائر الدينية ونظم المعابد الزرادشتية⁽¹⁾.

ليس لدى الباحث عن الديانة "الزرادشتية" إلا مصدر واحد، وهو كتابها المقدس: " زندأفيستا "الذي-وإن كان لم يتم جمعه إلا حوالي القرن السادس بعد المسيح- قد احتوى على جزء عظيم يُدعى "جاتهاسنا"، وهو الذي يرجح جميع العلماء أنه كلام "زرادشت" نفسه، ويرجعون تاريخه الى القرن السابع أو العاشر قبل المسيح على ما اختلفوا في وجود النبي الفارسي كما أسلفنا. وما ليس من كلام "زرادشت" من هذا القسم هو -في رأى الكثرة المطلقة من الباحثين- يمثل "الزرادشتية" الأولى حق التمثيل، ويصح أن يعتمد عليه في تاريخ العصر الأول من عصور هذه الديانة. وهذا القسم قد وجد مكتوبا بلغة قديمة ترجع الى ذلك التاريخ الذي عيّنه العلماء⁽²⁾.

(1) أبو ريان، محمد علي، المرجع نفسه ، ص 82 .

(2) محمد غلاب، مرجع سابق ، ص 186-187.

لم تقبل هذه التنثية "الزردشتية" إلا أثناء حياة مؤسسها، أما بعد موته فقد دار حولها الجدل، ولم يفهم الناس هذه الموازنة المعقدة التي وضعها "زردشت" بين الخير والشرّ. وما زال هذا الجدل يعمل عمله حتى انتهى حوالي القرن الرابع بعد المسيح، بأحداث تغيير جوهرية في هذه الديانة، فذهب فريق من رجال الدين الى انكار التنثية بتاتا، وعلان التوحيد، حيث صرحوا بأنّ "مازدا" هو الإله الأوحد، وأنّ "أهرمان" ليس خصما له، وإنما هو خصم روح القدس في "مازدا"؛ اذ هذا الأخير يحتوي على روحين. أحدهما خير، والثاني شرير ⁽¹⁾.

فقال أحدها أن هناك مبدأ محايدا مسيطرا على الوجود وهو "القدر". هذه الطائفة تسمى "الزرفانية"، وهم يرون أنّ "أهرمان" و "أهورمازدا"؛ صدرا عن هذا المبدأ المحايد. وذهبت فرقة أخرى هي "الجائرمائية" إلى أنّ الأصل في الوجود هو إله الخير، وأن فكرة شريرة نبتت في نفس إله الخير نتج عنها شك كان من أثره ولادة مبدأ الشرّ. وهذه العقيدة يدين بها الفارسي المحدثون. فإله الخير عندهم له ملكتان، ملكة الخير وهي ملكة أصلية، وتسمى "سبنتا ماينيو (Spenta Mainyu)، وملكة الشرّ، وهي ثانوية، وتسمى "إينا ماينيو (Aina Mainyu)" ⁽²⁾.

و "زردشت" لم يتصوّر ألّبتة أنّ الشعب سيرفعه بعد موته الى منزلة "أهورا مازدا"، والمسيح لم يدر له بخلد أنّ الشعوب التي اعتنقت ديانته ستغالي الى هذا الحد في شخصيته البشرية ⁽³⁾. وحتى أوزريس أو كونفوشيوس أو بوذا أو غيرهم، كان سيعرفون بأنّهم سيصبحون آلهة من دون الله تعالى، ولا أن ترتقي تعاليمهم الى ديانة تستمر الى عقود من الزمن، إلى أن حاول العقل البشري

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص192.

(2) أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص83.

(3) محمد غلاب، المرجع نفسه، ص190.

إعادة قراءة تلك التعاليم الأخلاقية على أنها مجرد أفكار تعبّر عن مواقفهم من الأحداث التي عايشوها في وسط مجتمعاتهم. وهنا نلاحظ مدى التقارب الفكري الفلسفي بين الشعوب في التشبث بآراء حكمائهم الى درجة التقديس، والمغالة في العبادة، وأن يكونوا جزءا من حياتهم.

وفي النهاية ستتخطم هذه القوة ويصبح مبدأ الخير أو النور مبدأ أوحده، وإذن؛ فوجود الشر مؤقت، وخلص الخير منه محتوم، ولكن الشيء الجديد في هذه النظرية هو أنها تجعل من الشر قوة حائلة تصدر عنها مخلوقات حقيقية لا وهمية، وهي في صدورهم تتحدى ارادة اله الخير على الرغم من أن هناك تمييزا أساسيا بين مخلوقات الخير ومخلوقات الشر، فهل يمكن ان نقابل مقابلة وجودية بين المبدئين فنقول انهما وجود وعدم؟ والواقع ان العدم لا ينطوي على وجود او حقيقة معينة. فيبقى اذن الموقف الثنائي قائما وحاسما دون حل ظاهر⁽¹⁾.

(1) أبو ريان، محمد علي، المرجع السابق، ص82.

المبحث الثالث: شخصية ماني ونشأة المانوية .

ولد ماني في أوائل القرن الثالث الميلادي، وكانت تعاليمه مزيجاً من الأفكار الزرادشتية والمسيحية. وقد تابع رأي زرادشت فيما يختص بالثنائية الفارسية، وتكلم عن امتزاج النور بالظلمة، ولكنه يختلف عن زرادشت في أنه يرى أن هذا العالم شرٌّ لامتزاج الخير والشر فيه، ويجب الخلاص من هذا الامتزاج ، ويكون ذلك بالامتناع عن النسل والزواج حتى ينقرض البشر، ومن ثم فقد دعا إلى الزهد وحرمة النكاح وحبذ الصوم ونهى عن ذبح الحيوان⁽¹⁾.

لم يعرف التاريخ عن حياة " ماني " أو "مانيس" مؤسس الديانة المانوية أكثر من أنه ولد في "بابل" سنة 215 ، وقتله أحد ملوك الفرس في سنة 275 بعد المسيح، وأنه كان متسكاً متصوفاً، متشائماً لا يؤمن بانتصار الخير على الشرّ البتة، ولا أمل له في صلاح هذا الوجود، وأنه تأثر في بعض نواحي مذهبه بالزردشتية، وفي البعض الآخر بـ "الميتيرية" القديمة التي عبثت بها العقلية الرومانية؛ فبدلت منها الشيء الكثير، وفي البعض الثالث بالديانة البراهمية الأولى، وفي الرابعة بالمسيحية قبل وضع قواعد الكنيسة ، كما تبين ذلك كلّ في آرائه⁽²⁾.

إنّ رؤية ماني للعالم؛ من أجل التساؤل فقط: كيف صدقها العقل البشري مع أنّها خرافات ظاهرة للعيان، والأدهى من ذلك، صارت متجذرة في الفكر الإنساني لقرون طويلة. فهي تفتقر إلى أدنى شروط التصديق العقلي في عصرنا الراهن، ومع ذلك لها أتباع ومذهب، يبرهن على أنّ العالم يحكمه عملاق هو مصدر الخليفة.

يرى "ماني" أنّ العالم نشأ من عملاق قسّم جسمه إلى أجزاء، ثم كوّن الموجودات من بعض هذه الأجزاء. ولا ريب أنك تذكر أسطورة بدء الخلق عند الهنود، وهي التي حدثتنا عن اشتياق الإله "براجا باتي" إلى التكثر، وعن تجزئته نفسه ونشره أجزاءه في الكون، ليؤخذ منها جميع الكائنات. أمّا رأيه في المبادئ الأولى؛ فهو يلخص في أن للكون مبدأين: الخير والشر، وهما أزليان

(1) أبو ريان ، مرجع سابق، ص83.

(2) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص201.

أبدان متساويان في كل شيء. ولاشك أنه في هذه النقطة قد تأثر "زرادشت" من ناحية، وبديانة "الثانوية" المغالية التي نشأت من مذهب "زرادشت" من ناحية ثانية"⁽¹⁾.

نلاحظ في هذا التصور لوجود الخير والشر في العالم، أنه متداول بكثرة من أجل تأكيد واقعية الكون، حيث لا ينكره عاقل؛ بوجود حقيقة يعيشها الإنسان، وكونها لا تضمحل ولا تزول، وعليه تعتمد الأفكار الشرقية على هذه الواقعية (الخير والشر) لتبرير تصوراتهم في تفسير الصراع بين بني البشر. وما هو معروف أنّ نظرية الخلق موجودة في الديانات السماوية، لكنها كانت ممتدة في باقي الديانات الوضعية والوثنية وغيرها، على أنها أسطورة مؤثرة في عقول الناس، سواء في الشعوب المصرية والصينية والبوذية والبابلية والفارسية، وغيرهم من الشعوب المترامية الأطراف هنا وهناك، في ذات المكان والزمان؛ حيث تظهر التصديقات لهذه الأساطير المروية على أنها حقائق علمية وواقعية. ومن أجله حكم على التفكير الشرقي بأنه يميل الى الخرافة أكثر من غيرها، وعليه كانت الحضارة اليونانية على موعد مع تغيير موقفها من الحقائق الشرقية القديمة، ومن ثمّ الشروع في بناء معارف جديدة أساسها العقل والتأمل في الحياة من جديد.

أ/- طبيعة مذهب المانوية:

وإليك ما يقوله الشهرستاني عن هذا المذهب: "حكى محمد بن هارون المعروف بأبي عيسى الوراق- وكان في الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم- أنّ الحكيم "ماني" زعم أنّ العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين: أحدهما نور والآخر ظلمة، وأنّهما أزليان لم يزالا ولن يزالا، وأنكروا وجود شيء لا من أصل قديم، وزعم أنّهما لم يزالا قوتين حساسين، سميعين، بصيرين، وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان"⁽²⁾، وفي الخير متحاذيان تحاذي الشخص والظل، إلى أن يقول: "ثم اختلفت المانوية في المزاج وسببه والخلاص وسببه فقال بعضهم: إنّ النور والظلام امتزجا بالخيوط بالخطب والاتفاق لا بالقصد والاختيار. وقال أكثرهم : إنّ سبب المزاج أن أبدان الظلمة

(1) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، ص201.

(2) المرجع نفسه ، ص202. انظر كذلك : في صفحتي 65-67 من الجزء الثاني من كتاب الشهرستاني.

تشاغلت عن روحها بعض التشاغل، فنظرت الى الروح فرأت النور فبغت الأبدان على ممازجة النور فأجابتها لإسراعها الى الشر، فلما رأى ذلك ملك النور وجّه اليها ملكا من ملائكته في خمسة أجزاء من أجناسها الخمسة، فاختلطت الخمسة النورية بالخمسة الظلامية، فخالط الدخان نسيم، وانما الحياة والروح في هذا العالم من النسيم، والهلاك والآفات من الدخان، وخالط الحريق النار، والنور الظلمة، والسموم الريح، والضباب الماء. فما في العالم من منفعة وخير وبركة فمن أجناس النور، وما فيه من مضرة وفساد وشرّ ، فمن أجناس الظلمة"(1).

يرى هذا المذهب أنّ الإنسان الأول مخلوق للنور أو للشمس الذي هو "أهورا مازدا" ، وكان هذا الإنسان في أول الأمر نورا محضا، وأنّ حكمة خلقه إياه إنما هي الجهاد ضد الظلام، ولكن هذا الخصم العنيف، لم يلبث أن انتصر على الإنسان وكبّله بالأصفاة وقاده الى سجنه الحالك. غير أنّ قوة إله الخير عملت على تخليصه من هذا السجن، فنجحت بعض الشيء. لأنّ إله الشرّ كان قد تمكّن من حبس جسمه النوراني في هذا الغمد الكثيف المكوّن من المادة المظلمة. ... ومن هذا نشأت عند ماني فكرة وجوب تخليص النفس من الجسم، أو إنهاء هذا العالم المادي باضعاف النوع البشري وإبادة النسل بوساطة حظر الزواج وغير ذلك من وسائل التخريب والتدمير التي عمل على نشرها ، والتي لم تكن ملائمة لطبيعة الفرس الذين حبّب اليهم "زرادشت" متع الحياة ولذاتها، وعرفهم وسائل القوة والاختصاص"(2).

ربّما هذا الدليل الواضح على أسطورة الفكر الشرقي القديم الذي لم تثبت أدلته على تصوّراته في كلّ النواحي، ولا أدل على ذلك تصوّراته حول مصير الإنسان، وفهمه للعالم بطريقة علمية صحيحة. فما بالك بتصوراتهم الدينية التي تفتقر الى التبصّر بالمصير الأخروي، فقد نسجت أساطير لا تتقبلها العقول، مثل ما جاءت به تعاليم الاسلام، التي أزاحت الستار عن بعض المعتقدات الباطلة، لأنها هدمت كيان الإنسان، لأنه أصبح يشك في كل شيء، حتى في الديانات على انها لا تحتكم الى التفكير السليم في تفسير مختلف الظواهر.

(1) محمد غلاب، المرجع نفسه ، ص 202.

(2) المرجع نفسه ، ص 203. بتصرف .

ب/-مصير العالم المادي عند المانوية:

ليس للمانوية في هذا الشأن شيء جديد؛ لأنها تبعت خطوات "الزرادشتية" شبرا بشبر، وذراعا بذراع؛ إلا فيما يختص بفناء الشرّ وامتزاج مملكته بمملكة الخير وتحقيق السّلام العام، فقد انكرت "المانوية" ذلك تمام الإنكار، وجزمت بأنّ المملكتين ستظلّان متباعدتين متعاديتين أبداً⁽¹⁾. وعليه لم يُسمَع عن المانوية أن تحدثت عن نهاية الحياة وفق ما جاءت به الزرادشتية؛ أي : أنّه لا يوجد يوم البعث أو المعاد الأخروي، وهذا هو التحوّل الذي وقع في الديانة الفارسية، فلم تثبت على المبادئ أو التعاليم الزرادشتية، ولم تدم طويلاً، الى أن ظهرت المجوسية ، فكان لها شأن آخر في طابع التدين في الفكر الفارسي القديم.

و لم تكد مبادئ المانوية تنتشر في بلاد فارس حتى تذرّ الشعب مما احتوت عليه من : ضعف ويأس وتشاؤم وانزواء وحرمان من لذات الحياة المباحة، ثم أخذت هذه الضجّة تعلو وتنتشر حتى بلغة أسماع الملك، فأحضر "ماني" أمامه، وناقشه في مذهبه؛ فلم يخف عليه شيئاً مما فيه، وصرّح أمامه بأن التخلّص من الشر أمر مستحيل، وأنّ استمرار العالم في الحياة معناه استمرار الشرّ، وأنّ الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذا الشرّ، هي تدمير هذا العالم؛ فلم يكن من الملك، إلّا أن قال له: "إنّ الحكيم المخلص لمذهبه يجب أن يبدأ هو قبل غيره بتطبيق هذا المذهب على نفسه، فإن لم يفعل بدأ أنصاره ومريدوه بتطبيقه على أستاذهم. ولما كنّا من أنصارك؛ فقد وجب علينا أن نبدأ بتطبيق هذه المبادئ عليك ، ثم أشار الى الجلاّد أن ابدأ بتدميره..."⁽²⁾.

هذا معناه؛ أنّ تعاليم المانوية لم تحظ بالقبول في التفكير الفارسي القديم، فكان سببا في تعدد الديانات وتحولاتها ؛ أي: نتيجة الامتزاج المتكرّر في التصورات (أخلاقية ودينية)، الذي حال دون ثبات تعاليم "زرادشت" ثم "ماني" ، ثم "مزدق"، وصولاً الى المجوسية. وهكذا نستنتج أنّ التفكير الأخلاقي والديني والسياسي والاجتماعي في الفكر الشرقي القديم، حدثت في تحولات كثيرة ومتقلبة، لم تسنح الفرصة للإنسان أن يصل الى حقيقة جديدة عن نفسه وعن الكون.

(1) المرجع نفسه ، ص 203 .

(2) المرجع نفسه ، ص 204 .

الفصل السابع

نصوص مختارة حول الفكر الشرقي القديم

النص 01 :

جرت عادة المؤرخين للفكر الفلسفي في الغرب والشرق على حد سواء ، وباستثناءات قليلة على أن يبدأوا تاريخ الفلسفة من الفيلسوف اليوناني طاليس (ق.م) الذي عاش فيما بين القرنين السابع والسادس قبل الميلاد . والحقيقة التي كشفت عنها الدراسات الحديثة في الفكر الشرقي القديم ، انه نقطة البداية الحقيقية للتفكير الفلسفي، فالفكر العقلاني للانسان بدأ منذ بداية ظهور الانسان على الأرض ، فأيا ما كان الانسان ، وأيا ما كانت البيئة التي ظهر فيها على وجه الأرض ، فهو بلا شك قد فكّر في قضايا الوجود والألوهية وأصل العالم الطبيعي. صحيح أن التفكير العقلي في هذه القضايا اختلط في بداياته بأنواع أخرى من التفكير الأسطوري والخرافي ، لكن العقل الانساني تخلص من الأسطورة والخرافة شيئاً فشيئاً ليفسح المجال بشكل تدريجي للتفكير العقلي المجرد للتفكير العقلي التحليل والنقدي " .

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة ، ص 9 من المقدمة.

المطلوب : اكتب مقالا تعالج فيه مضمون النص.

النص 02: أصل الفكر الفلسفي هو الفكر الشرقي القديم

إنَّ أصل الفكر الفلسفي وأصل الفكر العلمي هو الشرق القديم وليس اليونان. ان التاريخ المكتوب للحضارات الشرقية القديمة يعود الى حوالي القرن الأربعين قبل الميلاد ، بينما لم يكن لبلاد اليونان وجود أصلا في ذلك التاريخ. فكيف نتصور أنَّ الانسان ظل خلوا من التفكير العقلي الفلسفي أو العلمي كل هذه القرون ليبدأ فقط مع اليونان وفي القرن السادس قبل الميلاد.

ان دراسة فكرنا الشرقي القديم وتحليل نصوصه بعد التنقيب عن ما لا يزال مختفيا منها هو واجب علمي على أبناء تلك الحضارات الشرقية قبل أن يكون واجبا على مؤرخي الحضارة من الغربيين. والحقيقة التي أود الإشارة اليها أنَّ لهؤلاء المؤرخين والآثاريين الغربيين كل الفضل في الكشف عن وثائق وبرديات الحضارات الشرقية القديمة وفي لفت الانظار الى أهمية الحضارات الشرقية القديمة ودورها الخطير في التأثير على نشأة الحضارة الغربية في بلاد اليونان. وما نفعله نحن الآن هو مجرد تأكيد على هذا الاتجاه في العودة الى التأريخ الفلسفي بدءا من مساهمات الحضارات الشرقية القديمة رافضين خرافة المعجزة اليونانية في نشأة الفلسفة والعلم.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة ،ص12.

النص 03: نشأة الفلسفة في الشرق القديم.

يكاد يجمع المؤرخون للفلسفة على أنها قد نشأت في بلاد اليونان منذ القرن السادس قبل الميلاد، ويؤرخ لبدائها عادة بطاليس الذي عاش على ساحل أيونيا وولد بمدينة ملطية في عام 624 ق.م تقريبا.

والحقيقة أن معنى خاصا قد تبلور للفكر والحكمة عند اليونانيين منذ أطلق فيثاغورث الفيلسوف وعالم الرياضيات الشهير لفظة "Sophia_Philos"، أي محبة الحكمة لتكون اسم العلم الذي تداولته الألسن والأقلام للدلالة على ذلك النوع من التأمل والتفكير العقلي فيما يصادف الإنسان من مشكلات نتيجة لما يطرحه من تساؤلات حول علاقته بهذا العالم الطبيعي الذي يعيش فيه، وعن أصل هذا العالم، وعن علاقته بالآخرين من بني جنسه وعلاقته بتلك القوى الإلهية الخفية التي أبدعت العالم الطبيعي... الخ.

ولم يكن لفظ الفلسفة دالا على ما نعنيه اليوم فقط من تفكير مجرد وتحليل عقلي للمشكلات الإنسانية والميتافيزيقية، بل كان يدل كذلك على أي نشاط عقلي يبذله الإنسان بهدف السيطرة على الطبيعة وفهم ظواهرها الغامضة، ومن ثم كانت الفلسفة اسم علم يطلق على ابداعات الإنسان اليوناني في كل الميادين الفنية والأدبية والعلمية والدينية والفلسفية، فقد كان فيلسوفا كل من يفكر ويتأمل ويبذل في شتى الميادين، وعلى ذلك فالفلسفة كاصطلاح كانت تعني محبة الحكمة بهذا المعنى الشامل الذي ظل ملتصقا بها منذ العصر اليوناني وحتى مطلع العصر الحديث الذي شهد بداية الانفصال الفعلي للعلوم المختلفة عن الفلسفة.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة، ص29.

النص 04: دور الحضارة المصرية في الفكر الشرقي القديم.

إنّ دراسة الفلسفة في الشرق القديم ضرورية لمعرفة كيف بدأت التجربة الفلسفية لدى أول الحضارات الانسانية متمثلة في حضارات الشرق القديم المختلفة، وكيف بدأ العقل الإنساني يبحث عن الحقيقة في كل نواحي الوجود والحياة. إنها مغامرة العقل الإنساني الأول لاكتشاف طبيعة العالم الذي ظهر فيه هذا الإنسان .

إنّها التجربة الأولى لبناء الحضارة الانسانية على أسس عقلية، وهي التجربة البكر التي كانت بلا شك أكثر جرأة وأكثر عمقا مما يتصوّر الكثيرون من دراسي تطور الفكر في الحضارات المختلفة. إنها كانت التجربة التي استفاد منها الآخرون وطوّروها وبنوا عليها. ولذلك فلا مجال للحديث في اطر ذلك عن ما يسمى بالمعجزة اليونانية في نشأة الفكر والفلسفة عند اليونان . فالمعجزة الحق هي ملك للحضارة الأولى التي أبدعت وأبدع بناتها على غير مثال سابق في كل المجالات وعلى رأسها مجال الفكر الفلسفي والعلمي. إنّ أول فكرة فلسفية وأول نظريات علمية وأول مخترعات بشرية في كل مجالات الحياة هي بلا شك أول من بنى الحضارة وأول من بنى مدنية . وأول من صنع مجتمعا سياسيا به السياسة والعلوم والفنون والآداب مثل ما به من عمران وزراعة وصناعات مختلفة. ولما كان من المعروف ومن الثابت أنّ كل ذلك يعود إلى الشرق القديم بداية من بناء الحضارة المصرية القديمة. فمصر والمصريون هم أصحاب المعجزة لأنهم أصحاب أول حضارة أنشأت نفسها بنفسها كما قال "ولسون" في كتابه عن الحضارة المصرية القديمة.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة، ص11

النص 05 : المقصود بالفكر الشرقي القديم.

إنّ ما نعنيه بالفكر الشرقي القديم هو الفكر الذي أبدعه أبناء حضارات الشرق القديمة سواء في مصر أو في الصين أو في فارس أو في بلاد ما بين النهرين، وذلك فيما قبل ظهور الفلسفة في اليونان في القرن السادس قبل الميلاد.

وبالطبع فإنّ هذا التحديد التاريخي ليس نهائياً. فكل ما أبدعه الإنسان الشرقي فيما قبل الميلاد يعتبر موضوعاً للدراسة في إطار الفكر الشرقي القديم، وإن كان من الواجب أن نقصر قدر الإمكان على الإبداع في ميدان الفكر الفلسفي وخاصة في موضوعات الألوهية وتصورات نشأة العالم، والأخلاق والسياسة ونشأة المجتمعات... الخ الموضوعات التي تبلور في إطارها معنى الفلسفة فيما بعد عند اليونانيين.

وإذا كان معنى الفلسفة الأصيل هو البحث العقلي في قضايا الكون والإنسان عموماً، فإنّ المفكر الشرقي القديم كان أول من بحث في هذه القضايا، وكان أول من تبلور لديه بواعث الاهتمام بها؛ فقد كان من الطبيعي أن يتساءل الإنسان منذ ظهوره على هذه الأرض عن أصله وعن أصل هذا العالم الطبيعي الذي يعيش فيه، وأن يبحث عن تفسيرات للظواهر الطبيعية المختلفة، كما كان من الطبيعي أيضاً أن يفلسف علاقته بالطبيعة وبظواهرها، إذ لم يكن ممكناً...".

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة، ص17

النص 06 : مسألة الألوهية عند المصريين.

لقد غلب على الفكر الشرقي الطابع الديني والأخلاقي، فحينما كان يفكر الإنسان الشرقي حتى في الطبيعة محاولاً تفسيرها ارتبط ذلك لديه بأفكاره الدينية والأخلاقية وليس هذا الأمر المستغرب من إنسان نجح في قهر الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان، فكان عليه أن يركز تأملاته بعد ذلك في قضايا الأخلاقية والاجتماعية فكثر الأفكار الأخلاقية التي تصب كلها في وضع معايير للسلوك القويم داخل المجتمع وبدأت له ضرورة الربط بين هذه المبادئ الأخلاقية التي تنتظم على أساسها حياته الدنيا ، بمبادئ ما ورائية فكان إيمانه بالخلود والعالم الآخر مثلما حدث في مصر القديمة ، أو كان إيمانه بالخلاص والاتحاد بالبراهمان كما في الهند القديمة...الخ.

إنَّ نشأة التأليه في الفكر الشرقي جاء نتيجة تأمل المفكر الشرقي لما حوله من مظاهر الطبيعة ومشاهدة كيف تلعب الدور الأهم في حياة البشر وأنه لولا هذه المظاهر ما كان لحياته أن تكون وأن تستمر ، فكانت عبادة المظاهر الطبيعية وتأليهها ثم تطور الأمر حينما اكتشف أنه لا بد من وجود إله أعلى خفي غير ظاهر هو الذي أبدع كل هذه المظاهر الطبيعية وإن كان وجوده يتمثل فيها ويبدو من خلالها؛ فكانت عقيدة التوحيد بصورها المختلفة في مصر القديمة ولدى فلاسفة الهند ولدى زرادشت.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة، ص23_24

النص 07 : طبيعة الديانة البوذية.

أما إذا نظرنا الى الهند، فسند أن المفكر كان يحظى بالاحترام والتبجيل لدرجة عظيمة، وكان يمثل بالنسبة لعامة الناس القدوة والمثل الأعلى الذي ينبغي تقليد سلوكه وممارسة الحياة اليومية بالشكل الذي يرتضيه المفكر ويمارسه. وهذا ما نجده على سبيل المثال في تلك الحكمة العملية المتراكمة في الهند التي اتخذت شكل ترويض النفس (اليوجا) الذي يهدف في النهاية الى تحقيق ذلك التكامل المطلق للحياة. إنّ اليوجا التي يتم من خلالها ترويض النفس هي نشاط عملي تتمثل فيه كل صنوف الحكمة، فهي مزيج من التأمل المركز ونشاطات المعرفة والتذكر، وهي ممارسة للعبادة والتفاني.

كما نجد في البوذية صورة أخرى للتلاقي بين الفكر والحياة فقد اعتنق ملايين الناس تعاليم بوذا؛ لأنه رسم لهم بأفكاره وبحياته طريق الخلاص من كل صنوف الألم والمعاناة التي تكتنف حياة البشر، لقد دارت تعاليم بوذا حول أسئلة حياتية محورية يلمسها كل إنسان في حياته اليومية ، ما الألم والمعاناة ، ما أسبابها ؟ كيف يمكن التخلص منها؟ وكيف يمكننا أن نحيا حياة تخلو من هذه الآلام؟

على هذا النحو كان التزام المفكر الشرقي بإثارة القضايا الفكرية من حياة الناس ومن ثم حاول أن يقدم حلولاً واقعية لها بقدر ما استطاع . صحيح أنّ هذه الحقوق كثيرا ما شابها الطابع الميتافيزيقي الصوفي إلاّ أنها وجدت هوى لدى الإنسان الشرقي الذي يتفاعل عادة مع هذه الأفكار ذات الصيغة الصوفية باعتباره إنسانا روحيا يغلب الفعل الموافق للروح على الفعل المحبب للبدن.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة ، ص 28_29.

النص 08: تعاليم كونفشيوس الأخلاقية .

من المعروف أن كونفشيوس Confucius الذي عاش بين عامي 551 و479 قبل الميلاد⁽²⁾ هو المؤسس الحقيقي للفلسفة الصينية وكان أول من أقام نسقا حقيقيا لفلسفة عن الإنسان⁽³⁾، وذلك على الرغم من أنه استمر يحافظ على الاعتقاد التقليدي في السماء باعتبارها الإله الأساسي عند الصينيين، وقد اعتبر نفسه مقوضاً من السماء برسالة مقدسة. لكن مفهومه عن السماء جاء مختلفاً عن المفهوم التقليدي، فهو لم يعتبر السماوات مجسمة في صورة إنسانية فحسب، بل نظر إليها على أنها طبيعية من بعض الوجوه⁽¹⁾.

لقد كان كونفشيوس يتعد كثيرا عن مناقشة الأمور الدينية – رغم الفكرة السائدة بأنه كان رسولا نبيا – ويبدو ذلك من فقرات عديدة من كتابه المهم المقتطفات الأدبية Analects فقد ذكر أحد طلابه أنه لم يكن يناقش الطاء أي طريق السماء كما أنه رد على سؤال لأحد طلابه عن كيف يستطيع المرء خدمة الأرواح، بقوله: إذا كنت عاجزاً بعد عن خدمة الناس فكيف تستطيع أن تخدم الأرواح وحينما سأله آخر عن الموت، أجابه: إذا كنت لم تفهم الحياة بعد، فكيف تستطيع أن تفهم الموت⁽²⁾.

من هذه الكلمات يتضح لنا أن كونفشيوس كان يحجم عن الكلام فيما وراء الطبيعة، وعن السماء الإله، لصالح الاهتمام بالإنسان وبالحياة الإنسانية الطبيعية. لقد حول كونفشيوس أنظار الصينيين من التفكير في خوارق الطبيعة إلى التفكير في الإنسان ذاته وهذا هو نفس ما فعله سقراط في الفلسفة الغربية اليونانية بعد ذلك⁽³⁾.

مصطفى حسن النشار،

الفلسفة الشرقية القديمة، ص 147-148

النص 09: طبيعة الفلسفة الهندية.

يرى الباحث "بول ماسون أورسيل (Ourself)"، أنّ الفلسفة الهندية، كناية عن مذهب عملي في الحياة أو طريقة عيش خاصة. فأعمال الانسان أو أفعاله هي التي تقرر في النهاية، ماهيته ومصيره (الفلسفة الوجودية)؛ وهي التي تشكّل بالتالي حياته المستقبلية، والتي تعمل على بعثه أو خلقه من جديد خلقا جديدا.

فالشيء الوحيد الجدير بالاعتبار لدى الفلاسفة الهنود، هو الفكرة التي تؤدي الى غاية مفيدة أو نتيجة نافعة، حتى قلة كانت هذه الفكرة ليست بصحيحة من وجهة النظر العقلية الصرفة. وعلى ذلك؛ فالفكرة النظرية، ولو كانت صحيحة بحكم العقل ويقتضيها العقل بحد ذاته، فإنها لا تعدّ كذلك، أو لا يُنظر اليها بعين الاعتبار، إذا لم يقرّها أو يساندها الواقع؛ بمعنى إذا لم تؤدّ إلى غاية مفيدة على الصعيد العملي المباشر .

وإذن؛ فإن الفلسفة الهندية لا تأبه ولا تكثرث مطلقا بالمعرفة العقلية أو النظرية لأجل المعرفة، كما هو الحال في الفلسفة اليونانية، وإنما بما يمكن أن تؤدي إليه هذه المعرفة من فوائد مادية، وغايات عملية (فلسفة براغماتية).

مهدي فضل الله ،

بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، ص 43.

النص 10 : التعاليم الزرادشتية.

يرى " زرادشت " أنَّ للعالم قوانين ثابتة طبيعية يسير عليها، وأنَّ هناك تصادما ونزاعا مستمرا بين الخير والشرّ، أو بين النور والظلمة، ومجهوده في هذا الاتجاه هو توحيدِه لمجموعة الأرواح الخيرة ، وقد سماها "أهورمازدا" ، أما مجموعة الأرواح الشريرة فقد سماها "أهريمن" ، ورتّب لإله الخير القدرة على الخلق. فهو مصدر الموجودات الخيرة، وكذلك إله الشر، فإنَّ له القدرة على خلق الموجودات الشريرة. والحياة في مظاهرها المختلفة تتمثل في نزاع دائم بين المخلوقات. فالشر يحاول دائما مهاجمة الخير، ولكن الخير يدفعه ويتحدّاه حتى يصصره. والإنسان مسرح لهذا الصراع، ففيه قوة تميل الى الخير وأخرى تنزع الى الشرّ، وهو حرّ الإرادة، وعلى هذا فإنّه يتعيّن على الإرادة أن تختار واحدا من بين هذين الاتجاهين رغم أن الإنسان من مخلوقات "أورمازدا" أي إله الخير.

لقد قال "زرادشت" أيضا بحياتين للإنسان؛ حياة أولى في الدنيا وحياة أخرى بعد الموت. ونصيب الإنسان في حياته الأخرى هو نتيجة حتمية لأعماله في حياته الأولى. وذلك بعد أن ترصد هذه الأعمال في كتاب خاص، وهنا نجد اشارات كثيرة الى مسألة الحساب والبعث كما نجدها عند المسلمين. وقد أشار زرادشت أيضا الى ما يشبه عقيدة الصراط عند المسلمين. وقد عرف العرب كتاب زرادشت المقدّس وسمّوه "الابستاق" (Avesta)، وسمّوا شرحه بالزند (Zend Avesta) كتاب مقدّس كان يتضمن-على عهد زرادشت- واحدا وعشرين بابا. ولم يبق منها إلا باب واحد لا يحتوي إلا على مقتطفات في الشعائر الدينية ونظم المعابد الزرادشتية.

محمد علي، أبو ريان

تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ص 81- 82.

الخاتمة

الخاتمة:

نستنتج في الأخير؛ بأن هذه المطبوعة البيداغوجية الموسومة بـ "محاضرات في الفكر الشرقي القديم"، توافق البرنامج الدراسي الخاص بطلبة السنة الثانية ليسانس - فلسفة، نظام (ل-م-د)، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، وتمثل دروس قسم الفلسفة بجامعة الجزائر-2 أبو القاسم سعد الله، بحيث تلبي حاجة الطالب القارئ من معلومات تخصّ برنامج وحدة " الفكر الشرقي القديم "، كمادة سداسية. وكما قلنا في المقدمة، أنّ تدريس هذا المقياس في سداسي، لا يكفي الى درجة استيعاب المعلومات، بقدر ما نحن في حاجة الى أن يصبح الموضوع ذو أهمية بالغة في حياة الطالب.

لقد قدّمنا ما يمكن للطالب الباحث من معارف مختلفة ومتنوعة، تجمع مسائل فلسفية جديرة بالدراسة والتحليل، خاصة إذا كان الموضوع يتعلق بمصير الإنسان منذ القديم. وإن كتب لنا التوسّع أكثر في بعض المسائل الفلسفية الضرورية، فذلك من أجل تأكيد أهمية التفكير الفلسفي في حياة الإنسان والمجتمعات البشرية؛ لأنها من أولويات التعرّف على أبجديات النقاش واتخاذ المواقف الحاسمة حوله.

هذه المطبوعة أنجزت من أجل توجيه الطالب القارئ في قسم الفلسفة، بمدى ارتباط التفكير الفلسفي بجوانب عدة من العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولمعرفة برنامج الوحدة في نطاق واسع من التحليل والنقد لبعض المعارف المفيدة. لذلك ننبه إلى تدريس الوحدة سنويا؛ لأنه يصعب التحضير لها في سنة واحدة؛ إنّها وحدة في الفكر الشرقي القديم وتاريخ الحضارات القديمة، فهي متشعبة ومتداخلة المواضيع، ومشوقة أيضا من حيث مساءلة بعض المسائل التي تتعلق بتفكير الإنسان ومراحل تطو، وعليه يتطلّب تدريس الوحدة بجانب من التركيز على معالم محددة، منها : اسهامات الإنسان في بناء حضارته ومستقبله .

ولتوضيح مدى حاجة الطالب لدراسة التفكير الإنساني في الشرق القديم؛ خاصة في تناول بعض القضايا التي لا تزال عالقة في ذهنه ولا مفر من تحليلها. المهم؛ أنّنا نشجع هذا الطالب على مطالعة هذه المطبوعة المختصرة، بالاعتماد عليها كسند معرفي اضافي، لفهم مضمون الدرس الفلسفي حول الفكر الشرقي القديم.

قائمة المراجع

قائمة المراجع

- (1) أبو ريان، محمد علي، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، ج1، دار المعرفة الجامعية بالأسكندرية ، ط2، 1990م.
- (2) أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م.
- (3) أمينة صبري مراد، لمحات من تاريخ الطب القديم، القاهرة، 1966م.
- (4) باقر، طه، المقدمة في أدب العراق القديم، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية، القاهرة ، 2004 م.
- (5) بدوي عبد الرحمان، خريف الفكر اليوناني، شركة الطباعة الفنية المتحدة ، ط5، 1979م، القاهرة،
- (6) جمال المرزوقي، الفكر الشرقي القديم (وبدايات التأمل الفلسفي)، دار الآفاق العربية، ط1، القاهرة، 2001م.
- (7) جورج سارتون، العلم القديم والمدينة الحديثة، تر/ عبد الحميد صبرى، طبعة القاهرة، 1960م.
- (8) حسن النشار مصطفى، الفلسفة الشرقية القديمة، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة، ط1، 2012م، عمان.
- (9) سليم، أحمد امين، دراسات في حضارة الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، (د-س)، القاهرة.
- (10) سامي جبره: "في رحاب المعبود توت"، رسول العلم والمعرفة، تر/ عبد العاطي جلال، القاهرة، 1974م.
- (11) سراج توت، عنخ آمون في "موجز وصف الآثار المصرية"، لدائرة الآثار المصرية، القاهرة، 1969م.
- (12) شارل فرنر، الفلسفة اليونانية ، تر/ تيسير شيخ الأرض، منشورات دار الأنوار، بيروت، ط1، 1986م.
- (13) الشهرستاني، عبد الكريم، الملل والنحل ، الجزء الثاني،
- (14) فان براج، حكمة الصين، تر/ موفق المشنوق، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1998م، دمشق.
- (15) فريديك نيتشه ، هكذا تكلم زرادشت، تر/ علي مصباح، منشورات الجمل، ط1، 2007م، بغداد.
- (16) فريدريك هيجل، محاضرات في فلسفة التاريخ، تر/ إمام عبد الفتاح إمام، ج1، القاهرة، 1974م.
- (17) فؤاد شبل، حكمة الصين، ج1، دار المعارف، مصر، 1967م.
- (18) كريم، أساطير العالم القديم ، تر/ أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة، 1974م.
- (19) ليفي مارتن، الكيمياء والتكنولوجيا الكيميائية في وادي الرافدين، تر/ فياض المياحي وآخرون، بغداد، 1980م.
- (20) محمد غلاب، الفلسفة الشرقية، مكتبة البيت الأخضر ، القاهرة ،مصر، 1938م.
- (21) مهدي فضل الله، بدايات التفلسف الإنساني (الفلسفة ظهرت في الشرق)، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ط1، 1994م، بيروت.
- (22) علي حسين الجابري؛ الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، العراق، 1985م.

- (23) عبد العزيز، كارن محمود، الأسطورة فجر الابداع الإنساني، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 2002.
- (24) عبد الغفار مكاوي، "لم الفلسفة؟"، الاسكندرية، 1982م.
- (25) عبد اللطيف البديري، الطب الآشوري، بغداد، 1976م .
- (26) علي حسين الجابري، الحوار الفلسفي بين حضارات الشرق القديمة وحضارة اليونان، بغداد، 1985م.
- (27) ولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، تر/ مجاهد عبد المنعم مجاهد ،دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1984م.
- (28) ياسين خليل، التراث العلمي العربي، بغداد ، سنة 1978م.
- (29) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، لا القاهرة، ط3، 1983م.

المراجع بالأجنبية:

- (30)Hegel ;G ;W ,F :The philosophy Of History tran,by J,Sibree,P228,
- (31)Genouillac(H ;de),Tablettes Sumeriennes,arcaique,Paris,1909 ,
- (32)(E,Bréhier, Histoire de la philosophie,2 Vol,Paris, 1931 ,
- (33)G ; Maspero,Histoire ancienne des Peuples de l orient,Piara1909,

المجلات والدوريات:

- (34)جون كولر، تر/ كامل يوسف حسين، مراجعة إمام عبد الفتاح إمام، الفكر الشرقي القديم، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ط1، يوليو 1995م، الكويت.
- (35) وليد الجادر، بحث عن الأصداف، منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد 23، سنة 1978م.

الموسوعات والمعاجم:

- (36) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، دار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة 1982م.
- (37) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، ج1، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، سنة 2007م.

فهرس المطبوعة

الموضوع

الصفحة

ملخص المطبوعة البيداغوجية.....	3
مقدمة.....	4
مبحث خاص : قراءة في برنامج الفكر الشرقي القديم وأهدافه.....	7
الفصل الأول: طبيعة التفكير الشرقي القديم وخصائصه.....	10-31
المبحث الأول: طبيعة التفكير الشرقي القديم.....	11
المبحث الثاني: خصائص التفكير الشرقي القديم.....	15
المبحث الثالث: نشأة الفلسفة في الشرق القديم.....	22
الفصل الثاني: التفكير المصري القديم.....	32-50
المبحث الأول: طبيعة الحضارة المصرية القديمة.....	33
المبحث الثاني: نشأة العالم عند المصري القديم.....	36
المبحث الثالث: الإنسان في مصر القديمة.....	40
الفصل الثالث: التفكير الصيني القديم.....	51-65
المبحث الأول: بدايات التفكير الفلسفي الصيني القديم.....	52
المبحث الثاني: مبادئ كونفشيوس الأخلاقية.....	57
المبحث الثالث: الانسان في فكر الحكيم كونفشيوس.....	62

الفصل الرابع: الفكر الهندي القديم 66- 81

المبحث الأول: طبيعة التفكير الهندي القديم. 67

المبحث الثاني: نشأة البوذية كفلسفة أخلاقية. 69

الفصل الخامس: الفكر البابلي القديم..... 82-98

المبحث الأول: حضارة بابل القديمة و مساهماتها الحضارية. 83

المبحث الثاني: الأخلاق في الحضارة البابلية 92

الفصل السادس: الفكر الفارسي القديم..... 99-118

المبحث الأول: في طبيعة التفكير الفارسي القديم..... 100

المبحث الثاني: حياة زرادشت ونشأة الديانة الزرادشتية. 103

المبحث الثالث: شخصية ماني ونشأة المانوية 115

الفصل السابع: نصوص مختارة حول الفكر الشرقي القديم..... 116_129

الخاتمة..... 130

قائمة المراجع..... 132

فهرس المطبوعة..... 135 - 136